ثروت أباظه

الغفران

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

(١)

حين الزمان غرير ، والأيام آفاق عريضة من الابتسامات ، والناس يصدرون عن طيبة خالصة ، والضمائر نقاء صاف ، والحب يختلسه المحبون فيما يحسبون أنهم بنجاء من العيون الرواصد . بينما أمرهم على مهموس وحديث دائر كلما اجتمع من الأسرة اثنان ..

أحب صابر عبد المعين ابنة خاله وداد الرحمانى ..

كان صابر عبد المعين فى المدرسة الثانوية موشكا أن ينال شهادة البكالوريا ، وكانت وداد قد تركت المدارس وبقيت فى البيت ..

وحين نال صابر البكالوريا خفقت بقلب وداد رعشات الأمل ، وتماوجت بين جوانحها ألوان من الفرح شتى تنتمى — وإن كثرت أشكالها — لأب فرد هو الحب .

وذهب مفيد الرحمانى ليهنئ ابن أخته بالشهادة التى نالها ، وذهبت فى رفقته زوجته ألفت وابنتهما وداد .

واجتمعت الأسرة فى بيت عبد المعين حماد تظلهم من السعادة سحابة حبيبة ، فقد كان ذلك العهد يعيش فى وفرة من المودة والصفاء الذى لا يعرف الحقد أو الحسد أو البغضاء .

وكان ابن الأخت ابنا لخاله أيضا وابن الأخ ابنا لعمه ، وابنا لكل من فى عمر الأب من الأقارب أو ممن ينتسب إلى الأسرة بآصرة نسب

أو وشيجة صداقة .

وقال عبد المعين :

— يا مفيد قل يا رحمن يا كريم .

وقال مفيد وقد أدرك بحاسته إلى أين سيذهب الحديث :

— سبحانه جل شأنه ..

— أنت تعرف أننا ناس من الفلاحين ، من الأرض نعيش وعليها بعد الله اعتمادنا ..

وقال مفيد محاولا التسلل إلى جدية الحديث بشيء من الندى :

— كأنى أعرفك اليوم .. لقد تزوجت أختى من عشرين سنة وأعرف تماما كيف تعيش ..

وقال عبد المغين مستجيبا لمحاولة مفيد :

— بل إنك تعرف عنى ما لا أعرف ، والبركة فى أختك التى لا يبل فى لسانها فولة .. المهم ..

— تعال إلى المهم .

— المهم أن صابر لن يدخل المدارس العالية .. أنا أحتاج إليه فى الأرض ، وأنا أريد وداد لصابر .

وامتقع وجه وداد من الفرح وطغت السعادة على وجه ألفت ، وقال مفيد بعد هنيهة صمت كان لا بد منها :

— ابنى يخطب ابنتى ، وأنت كبير عائلتنا ولك أن تتصرف فيها كيف تشاء ..

— يعنى موافق ..

ـــ كلامك يا عبد المعين أمر فى كل بيتى ، فكيف إذا كان فى موضوع يسعدنى كما يسعدك ؟..

وقال عبد المعين فى لهجة مفعمة بالسعادة :

ـــ قم يا صابر قبل يد حماك ..

وبفرائص مرتعدة من الفرح قام صابر يقبل يد خاله ، ثم قامت أمه تهانى فقبلت أخاها وقبلت سلفتها ألفت ، ثم التفتت إلى وداد وقالت لها :

ـــ أما أنت فتعالى أشبعك من القبل ..

ثم أطلقت زغرودة أعلنت بها إلى الجيران والأزمان ، خطبة وداد إلى صابر...

وفى صخب هذه العواطف التقت النظرات من وداد وصابر .. وقالت العيون ما لم يقله حديث وما لم تستطع القبلات المتبادلة بين الأهل أن تحمل معانيه وما تنوء به زغاريد العالم كله بعظمته وأبعاده .

* * *

كان عبد المعين موفور الثروة ، وكان العثور على بيت أمرا يسيرا ، فما أسرع ما اشترى الأب لابنه بيتا من طابقين بحى الحلمية ، وما أسرع ما جهزت تهانى بيت العرس .. فما مر شهران حتى كانت العروس فى حضن زوجها .

وبعد تسعة أشهر كان عبد المعين يحمل الحفيد الأول له من ابنه ..

ـــ بسم الله ما شاء الله ! اللهم اجعل خلقه رضيا وحبب فيه خلقك .. اسمعى يا بنتى يا وداد ! سأقول لك سرا لم أقله لأحد .. كنت أتمنى أن يكون اسمى عبد الكريم أو عبد الغنى أو عبد الله .. الشاملة لكل صفاته

سبحانه وتعالى ، و لم أكن أتمنى أن يكون اسمى عبد المعين .. سبحانه هو العون ومنه العون ، ولكن العبد لا يحتاج إلى العون إلا حين يضيق به الأمر وتحوم حوله الشدائد ، فلا تسميا الولد باسمى .

وتبتسم وداد وتقول :

ـــ اسمك بركة يا عمى .

ـــ سمياه عبد الغنى، عسى الله أن يغنيه بالقناعة وهى الغنى الكامل...

ويقول صابر :

ـــ فاسمه إذن عبد الغنى على بركة الله .

* * *

ويمر عام وشهران ، وينجب صابر ووداد ابنهما الثانى ويسميه جده عبد الودود .

* * *

ولا ينتظر الجد حتى يرى حفيديه يسعيان فى مناحى الحياة ، بل يختاره الله إلى جواره وعبد الودود فى الخامسة من عمره ..

وما هو إلا عام وثلاثة أشهر حتى تلحق به زوجه ، ويحس صابر بفراغ هائل يشمله ويحيط بأيامه . كان شجرة خضراء غضه تعتمد فى صعودها على الخبرة من أبيه وعلى الحنان من أمه . وقد كان أبوه عالما بأصول الزراعة كل العلم ، وكان محبا للناس يدرى كل الدراية كيف يتألف قلوبهم . وكان يعطى من ماله عند ضيق وعند فرج ، فيكسب حب الناس له وإجلالهم وتقديرهم . وكان من هؤلاء القلة الذين وهب الله لهم تلك الموهبة الفذة التى تجعلهم كبارا بين قومهم وإن لم تعل بهم السن .. هؤلاء

الناس الموهوبين ملكة حب الناس ، والقدرة على جعل الناس يحبونهم ويضعونهم بينهم فى مكان الصدارة .

هؤلاء الناس الذين خلقهم الله كبارا فى تصرفاتهم وفى أقوالهم وفى أعمالهم . لا يقربون الدنية ، ويجعلون أيديهم هى العليا ، ويعطون فلا بخل فى العطاء ، وكأنما هى لهؤلاء الناس حق عندهم يردونه إلى أصحابه ..

وهكذا يجعلهم عشيرتهم رؤساء لهم وإن لم يطلبوا . وقد لازم صابر أباه عبد المعين حياته جميعا .. وعرف كيف يكون مثله .. وأكرمه الله بأن وهب له ما وهب لأبيه من الكبرياء بغير تكبر .. ومن الحب للناس من غير تعاظم .. يعطى ويلين للناس بالحديث والتراحم والأخوة .. إذا صفت الأخوة برئت من جشع أو طمع أو حقد أو تحاسد .

لم يكن صابر مقبلا على الزراعة إقبال أبيه ، ولكنه كان يعرف كيف يعامل الناس الذين يزرعون فأغدقت عليه الأرض . وقد ترك له أبوه مائة فدان خالصة من أجود أرض .. مع أموال سائلة تغنيه كل الغناء .

وفى السنوات التى عاشها الجد استطاع أن يرى حفيديه كليهما يبدآن التعليم فى مدارس الروضة الحكومية بالقاهرة ، وكان يقسم وقته بين القاهرة وبين القرية وكذلك كان يفعل صابر . وكان الطفلان يصاحبان الأب والجد إلى البلدة كلما ذهبا إليها ، ولم تنقطع هذه العادة إلا حين بدأ تعليمهما فى القاهرة . واحس عبد المعين فى فرح أن عبد الغنى — ومثله عبد الودود — مقبلان كل الإقبال على القرية .. وأن كليهما دائم السؤال عما تنتجه الأرض وعما يساويه هذا الإنتاج من مال .. وكان عبد المعين فى صفائه ورضى خلقه يسعد بهذا ، لعل الله أن يضع حب الأرض فى

الحفيدين ما دام لم يستطع الابن أن يحب الزراعة .

وحين مضى عبد المعين للقاء ربه كان قرير العين بهذه الخاطرة ، فأبناء الدنيا يرون الخير والشر من ثقب ضيق لا يتيح لهم أن يتعرفوا أين يكمن خيرهم الحق ، وأين يتربص بهم الشر ..

كان صابر فى زهرة الشباب حين صعد أبوه إلى جوار ربه ، و لم تستطع أسرته المحبة له الحانية عليه أن تعوضه عما فقد بموت أبيه .. وقد ازداد لوعة بفقدان أمه أيضا ..

ولكن الحياة استطاعت أن تشغله بشواغلها ، وما لبثت الأيام أن اجتذبته إلى دفاعها .. ولكنه دائما كان يتحسس الجرح الغائر فى حنايا نفسه بموت أبويه ..

وكان الوقت شتاء .. وكانت أسرة صابر كلها فى القرية فقد كان التلاميذ فى إجازة نصف السنة .. كانت الرياح خارج البيت عاصفة .. واجتمعت الأسرة فى حجرة واحدة من الطابق الأعلى من البيت الأنيق الذى كان عبد المعين قد بناه على أحدث طراز من فن ذلك الزمان .. كان البيت يحتوى على أربع غرف فى الطابق الأعلى ، وعلى مثلها فى الطابق الأول ..

أما الطابق الأعلى فكان مخصصا للنوم ، وكان عبد الغنى وعبد الودود ينامان فى غرفة واحدة ، فقد كانا متحابين كل الحب ، متلازمين فى كل لحظة من لحظات حياتهما لا يفرق بينهما إلا فصول الدراسة .. وقد ارادت وداد أن تخصص لكل منهما حجرة فأبى كلاهما ذلك .

وكانت هناك غرفة صابر ووداد .. وجعلت وداد غرفة مخصصة

للجلوس فيها وقضاء اليوم ، وخصصت الرابعة للطعام .

أما الطابق الأول فقد كان جميعه لاستقبال الضيوف .

كانت الأسرة جالسة فى غرفة المعيشة وقد أشعلوا موقدا وراحوا يسمرون بما يعن لهم ، وقد سرى الدفء فى أوصالهم ..

وفجأة انقض عليهم صوت عالى الضجيج غلب على صوت الرياح ، فملأهم الذعر وارتمى الطفلان فى حضن أمهما .. وأدرك صابر أن بناء قد تهدم ، فسارع إلى عباءته فأحكم لفها حول جسمه واندفع كالسهم خارجا .. ودون أن تدرى ما هى فاعلة ، تخلصت وداد من الطفلين وحذرتهما من الخروج واندفعت إلى الخارج وراء زوجها ، وانكمش الطفلان متلاصقين فى كرسى واحد ..

ونزل صابر فوجد رهطا من رجال العزبة قد سبقه إلى حظيرة المواشى التى تحطمت أعراقها الخشبية من شدة الرياح وانهار سقفها فأصاب بقرة من ثمان بقرات وجاموسة من ست جواميس .. وراح الرجال يخرجون البهائم من الحظيرة ، وراح بعضهم يقول لصابر :

— الحمد لله قدر ولطف ..

وراح هو يردد دون وعى :

— الحمد لله .. الحمد لله .. ادفنوا البقرة والجاموسة وضعوا البهائم الأخرى فى حظائركم حتى الصباح ..

والتفت بوحى مفاجئ من ضميره إلى حيث كانت وداد ، فرآها فى ملابس البيت واقفة على مبعدة من الرجال فسارع إليها ..

— لماذا جئت يا وداد ؟

ــ خفت عليك ..

ــ ارجعى .. أسرعى إلى البيت . لقد كنا فى حجرة دافئة وخرجت إلى هذا البرد القارس بلا معطف عليك .. ارجعى أنت .. الحمد لله .. لم يحدث شىء .. حاجة بسيطة ..

ورجعت وداد ..

وقال الرجال لصابر :

ــ لقد كنت تتوقع هذا ..

ــ نعم ، ولهذا بدأت أبنى الحظيرة الجديدة .. ولكننى كنت أتمنى أن تنتظرهذه حتى أتم بناء الحظيرة الأخرى ..

وقال أحد الرجال ..

ــ له فى ذلك حكم .

ــ سبحانه .. كله بأمره .

* * *

ما أهون الخسارة التى منى بها صابر والتى انحصرت فى بهائمه.رجع إلى البيت راضيا..فقد كان من ذلك النوع من الإنسان الذى يظل خائفا من المجهول، حتى إذا وقعت خسارة أو ألم به مكروه حمد الله أنها أقل مما كان ينتظر.. لقد أصبح منذ وفاة أمه وأبيه من ذلك النوع الذى يتوقع من المصائب أفدحها ، ومن الكوارث أشدها عنفا .. حتى إذا وقعت حادثة كهذه التى أصابت بهيمتيه اعتبرها نعمة لا نقمة.. لأنه كان يتوقع من سير الأيام وتقلبها مالا طاقة له به .. فإذا انكمش هذا التوقع المروع إلى فقدان بهيمتين وسقف حظيرة فما أهون الأمر وما أضأله !.. فقد كان مع هذا القلق من

الدنيا متفائلا يقدر أن الأيام إذا عاجت يوما فى طريقها اعتدلت بعد ذلك أياما طوالا ..

مسكين ذلك الإنسان !.. يعيش من دنياه فى هلع دائم .. يتربص باللحظات عالما أنها تتربص به .. وعجيب ذلك الإنسان .. يحب الحياة رغم ذلك .. ولو كان عاقلا لكفاه التهديد الدائم الذى يلح على مشاعره حتى يكرهها ، ويتمنى أن ينتقل إلى الأمن السرمدى هنالك مع الرفرف الخضر والطمأنينة الخالدة .

* * *

أصبح الصباح فإذا وداد تعانى من حرارة شديدة يتوقد لها جسمها جميعا ، ويتفصد لها جبينها بل كل جارحة فيها وتوشك أن تهذى من وقدة الحمى .. ويسارع صابر إلى الطبيب يستدعيه .. إنه التهاب رئوى حاد . ويبدأ العلاج وتزداد بها الحمى سعارا . ويأتى طبيب .. وآخر .. ثم آخر .. وتموت وداد .

(٢)

زوج يحب زوجته و لم يحب غيرها طوال حياته .. وهى قد فاضت عليه بالحب خالصا صافيا لا يرنقه كدر ولا ينغضه حرج أو تصرف يضيق به .. ووهبت له البنين ، وتضاعف الحب بين الزوجين بالتقاء قلبيهما حول ولديهما ..

وفجأة وقبل أن تسعى بهما الحياة فى مدارجها .. وقبل أن تمسك بيد طفليها وهما فى خطوات العمر الأولى .. تموت الزوجة فتنزل الطامة بالشاب المؤمن نزول الصاعقة .. وتعصف به أنواع الخوف والذعر من المستقبل . وتصبح نظراته إلى أولاده كلها ألم وحذر وحيرة وإشفاق .. بعد أن كانت حبا وتعاطفا وحنينًا مع قربهما إليه ، وتفانيا حتى لقد كان يتمنى أن يصبح بعضا من كيانهما .. أو يصبحا بعضا من كيانه .. فكيانه اليوم ممزق .. ونظرته إلى أبنائه فرق وخوف يطحن ، وحيرة مع المستقبل فى شأنهما ..

كان كل يوم يمر يقترب به من بؤرة الدوامة ، حتى لقد أوشك أن يفقد اتزانه وقدرته على الحياة ..

وفى إلهامة ربانية يصحب ابنيه إلى حج بيت الله ..

وفى لبيك اللهم لبيك ارتدت إليه نفسه وعاد إلى رشده وكأنما أجابته أستار الكعبة أن وداد فى ظلال وريقة فى الملكوت الأعلى . وتغلب حبه لها

على جزعه لفقدها ، ووجد الأبناء فى حضن ابيهما أمنا بعد فـزع ، وطمأنينه بعد حيرة وهلع .. وأصبح صابر منذ وقوفه أمام البيت إنسانا آخر .. لقد رأى هناك أن الدنيا جميعا ما هى إلا طريق إلى الخلود عند صاحب النفوس وخالقها وقابضها .. وهكذا عاد إلى مصر وقد امتلأت نفسه بحب العبادة والتفانى فى ذكر الله وفى الزكاة .. والعجيب من أمره أنه أصبح محبا للزراعة وحريصا على إتقانها .. مرتئيا أن الله حين يهب إنسانا نعمة فإنه ينبغى على العبد أن يشكر ما أنعم به الله ، ولا يكون ذلك إلا برعاية ما وهبه سبحانه لعبده .. وكان أول ما صنعه أن بنى مكان الحظيرة التى تهدمت مسجدا غاية فى الفخامة وأسماه مسجد الوداد ، وراح يوزع نفسه بين أرضه وبنيه ، وكان يلجأ إلى حماته ألفت هانم أن ترعى ولديه وتمر بهما كلما اضطرته ظروف العمل أن يترك الطفلين . وقد صحب لهما من القرية نبوية البوهى التى توفى عنها زوجها الخفير صالح عوض وهى فى ريعان الشباب ورفضت بعده أن تتزوج .. ولم تكن نبوية بذات بنين أو بنات فأفرغت حنان الأمومة الربانى على عبد الغنى وعبد الودود ..

وتمشى الحياة وهى دائما تمشى لا يقف بها شىء ، وإنما تشرق شموس الأيام من أجواف الظلمات ، ثم يسقط الليل على النهار فيفنيه . وكما يولد فى كل مطلع شمس يوم جديد . فإنه ما يلبث أن يموت بخطوات الظلام إلى الشمس .. وتصبح الحياة كلها حياة وفناء . ومن الحياة يأتى الفناء ، ومن الفناء تختلج الحياة ، وتصبح هكذا سنة الحياة جميعا فى كل لحظة من لحظاتها حياة وفناء ! ومع مولد طفل فى كل لحظة ، تموت حياة فى نفس اللحظة ، وقد يكون الفقيد طفلا أو شابا أو عجوزا ولكنه يموت . وهل ميلاد طفل

إلا هدية يقدمها الغيب إلى الموت فى موعده الموقوت .. لا يستقدمون عنه ولا يستأخرون .. أوَ ليس هو مخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ؟ أوَ لا يصدق هذا على كل حياة فى الأرض من إنسان أو نبات أو حيوان ؟ وتمضى الحياة مهما يكن الميت عزيزا على آله ، ومهما يكن أثيرا عندهم ، ومهما يكن فى ريعان الفتوة وزهوة الشباب . تمضى الحياة ففى ألفاظ حروفها معنى الموت ، وإن كانت جملة الحروف تقول حياة . ولكن هل هناك حياة بغير موت ؟ أو هل هناك موت بغير حياة ؟ حتى يرث الله الأرض وما عليها فتكف الحياة عن لعبتها المتواصلة ويفرض الله الخلود ، ويحيى النفوس التى أنشأها هو أول مرة ، ويكون الحساب عند الحق الذى لا يضيع لديه أجر من أحسن عملا ، وتصبح حروف الحياة وقد فقدت معنى الفناء واكتسبت صفة الخلود . فتلك إذن هى الحياة الحق ، وما هذه التى نحياها إلا طريق إليها نقطعه شئنا أو أبينا . وعند نهايته ندرى أضلالا كان سعينا أم كان على هدى ؟ وننطوى فى ظل الجلالة العليا مخبتين آمنين . ولو لم نجد فى رحباته إلا الأمن وحده لكان فى ذلك حسبنا غاية الحسب .. وهل بعد الأمن نعيم ؟..

تمر الأيام بحلوها ومرها على الأسرة المبتورة ، ويصبح عبد الغنى فى الثانوية العامة ويصبح عبد الودود فى السنة السابقة لها ، فقد كان الولدان ينجحان فى كل عام فى غير تفوق ، وإنما هو نجاح متواضع هزيل .. ولكنه نجاح .

وصابر طوال هذه السنوات حريص على فرض الله . وحريص أيضا على القيام بواجباته فى الزراعة يكاد لا يزور إلا بيت خاله مفيد .

وكانت ألفت هانم تستقبله أحسن استقبال ، فقد كانت تقدر أنه أكرم ابنتها غاية الإكرام ، ولم يحبس عنها كرمه طول حياتها ..

وكان كثيرا ما يجد فى بيت ألفت أختها رحيمة .. وقد أنس إليها ووجد فيها سيدة طيبة النفس لا خبث فيها ولا دخل . تكثر من الحديث عن سجية مواتية ، وتذكر خاصة شئونها وكأنها أمور عامة ينبغى أن تذاع على جميع الناس . حتى العلاقات الحميمة بينها وبين زوجها لا تخفى منها شيئا .. بل إنها حتى لا تخفى شيئا من فقر ابنتها هند وزوجها حامد .. وكانت تروى عن حامد لا تخفى من أسرار عمله شيئا ، وكان صابر يجد فى رواياتها إيناسا ومتعة ..

ـــ ترى ألأنى وحيد .. خلا بى البيت بعد وداد ؟ ولكننى من ذكر الله فى شعور عميق الفيض .. إننى أسبح فى الملكوت الأعلى غنيا عن العالمين .. ما أحقر الإنسان مهما يرتفع بروحه إلى عليين فى أسمى رحاب ، يظل بجسمه بل وبتفكيره أيضا عبد الأرض التى ما يزال يعيش عليها . يحتاج الإنسان فى الأرض إلى الإنسان دائما .. ما دام يعيش حياة الأرض فهو فى حاجة إلى الإنسان .. وإلا فما هذه السعادة التى تغمرنى وأنا أستمع إلى رحيمة ؟ وما هذا الجذل الذى يعترينى .. وأنا أسمعها تروى عن ربو زوجها ، وعن فقرها مذ زواج ابنتها ، وعن خيبته أيضا وكيف أنه لا يعرف شيئا فى الدنيا إلا المدرسة والتلاميذ .

فى يوم من بعد الظهيرة صحب طفليه إلى بيت جدتهما .. وكانا قد أصبحا شابين . وكانت جدتهما كثيرا ما تشكو إليه تقصيرهما فى زيارتها ، فاضطر أن يشدد عليهما النكير ليصحباه إليها وإلى جدهما مفيد ، وواجهته

فى البيت سحابة سوداء من الحزن والأسى يعرف ملامحها ، وإن كان لم يدر فى يومه هذا سببها .

وسأل وجاء الجواب ..

ـــ حامد زوج هند .

ـــ ماله ؟

ـــ أصابته نوبة قلبية خطيرة .

ـــ وأين هو الآن ؟

ـــ فى البيت . رفض الطبيب أن ينقله إلى المستشفى فأى حركة خطرة عليه ..

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله .. كم عمره ؟

ـــ فى الخامسة والأربعين تقريبا ..

ـــ أتريدان الذهاب إليه ؟

ـــ أنا أريد أن أذهب ومفيد يرفض ..

ـــ يا بنى الطبيب مانع الزيارة .. وأنا أعلم فى هذه الحالات أن الزيارة خطرة ، فما ذهابنا ؟

ـــ يا أخى أذهب إلى أختى وابنتها ولا أدخل إليه .. الطبيب مانع زيارة المريض لا زوجة المريض ولا حماته ..

ـــ وحين نذهب أليس من الطبيعى أن يقدموا لنا قهوة وإكرامية ، ونشغل البيت جميعا عن المريض الذى يحتاج إلى كل عناية ؟

ـــ يا مفيد الله يهديك . ليس من المحتم أن تقدم لى أختى أو ابنة أختى إكرامية .

وأخيرا تكلم صابر ..

ــ أنت محق يا عمى ، ولكن من وجهة نظر أخرى أرى ألا نتركهم وحدهم ، وقد يحتاج الأمر إلى من يعنيهم فى هذه الفترة الحرجة .

وقالت ألفت :

ــ قل له يا بنى :

وقال مفيد :

ــ أترى ذلك يا صابر ؟

ــ أعتقد ذلك .

ــ هل معك سيارتك ؟

ــ نعم .. هيا بنا .

والتفت إلى ولديه وطلب إليهما أن يعودا إلى البيت ..

وفى بيت حامد رأى صابر مصدر الوجوم الحزين الذى لقيه فى بيت حميه .. مسكينة هند ! الهلع والحيرة والخوف والأمل والاضطراب والجهد المستميت للسيطرة على نفسها ، حتى تظل متماسكة لتراعى المريض وترعى شأنه . و رأى محياها يكسوه ذلك الشعور بالوحدة القاتلة . أعلم أنها لا ولد لديها ولا ابنة .. ولكن لها أبوها داود افندى الدمراوى .. ولها أمها.هيهات ! الأم مهما تكن خفيفة الظل كثيرة الحديث إلا أن وجودها عند الشدائد يصبح كالعدم . والأب مشغول نهاره بالمدرسة التى يعمل بها مدرسا ، وليله بتلاميذ الدروس الخصوصية الذين يصيب منهم مالا قليلا يعينه على الحياة ، وعلى شراء أدوية الربو الذى أصيب به منذ سنوات .

لا عجب إذن أن تصبح هند وحيدة .

وكغريق لقف طوق النجاة !

ـــ الحمد لله أنكم جئتم .. هل سيارتك معك يا صابر ؟

ـــ نعم .

ـــ هذا دواء كتبه الدكتور لحامد و لم نجد له أثرا فى الصيدليات القريبة .

ـــ لحظات وأكون عندك بالدواء . كيف حاله ؟

ـــ ربنا يستر .

وراح صابر يمر بالصيدليات فى إصرار وإخلاص و لم يجد الدواء إلا بعد قرابة ساعتين . و لم يدر لماذا خامره هذا الشعور بالسعادة حين وجده .. إن صلته بحامد صلة غير حميمة ، وربما تكون لقاءاته بهند كثيرة حين يلقاها فى بيت حمدية. ولكنه كان كلما لقيها يحس أنها تحمل ألما دفينا عميقا فى الأغوار البعيدة من نفسها .. ترى ما سر هذا الألم ؟.. مسكينة هند إنها لا تجد أحدا تفضى له بأحزانها فأمها مشغولة بالحديث عن الاستماع وأبوها مشغول بالحياة عن الحياة .. والابنة تطوى نفسها على هذا الألم لا يدرى مأتاه وإن كان واثقا منه ..

رقيقة الملامح هى جميلة غاية الجمال لو أن الإشراق تلألأ فى ثأمات وجهها لأصبحت قمة من الحسن لا تدنو إليها قمة .. يعرفها منذ كانت طفلة ولكنها لم تكن تزور خالتها كثيرا فهى أكبر من وداد .. وكانت قليلة الزيارة بعد الزواج . وحين ماتت زوجته أصبحت رؤيته لها بالصدفة ولكنه لسبب لا يدريه كان يشعر نحوها بنوع من العاطفة يعجز عن وصفه .

ليس حبا .. فهو لا يتصور أن يحب سيدة متزوجة .. والعاطفة عنده مهما تكن جياشة إلا أنها خاضعة للعقل بالسليقة يقمعها قبل أن تشتط ويردها دون التمادى قبل أن يصل الأمر بها إلى الثورة ..

وصل صابر بالدواء .. فطالعه ذلك الصراخ الذى يعلن به نساء مصر عن الموت .. وسارع بالصعود ووضع الدواء الذى لم يصبح ذا فائدة على منضدة بجانب الباب .. وضعه فى خفية وعلى استحياء وكأنه يقوم بعمل مخجل . وذهب إلى خاله مفيد ..

ــ خالى اذهب انت إلى البيت واترك الأمر لى ..

وكأنما كان مفيد ينتظر إشارة تبعده عن هذا الكرب العظيم ..

وتولى صابر الأمر وظل ملازما لهند حتى تمت كل الطقوس التى تعود الناس أن يقوموا بها بعد الوفاة .

وبعد أن مرت الأيام الثلاثه التى تتقاطر فيها السيدات إلى بيت العزاء تحرى أن ينفرد بهند .

ــ ماذا أنت صانعة ؟..

ــ لا شىء .. أحسب أننى سأعود إلى بيت أبى ..

ــ طبعا ولكنك هناك كيف ستعيشين ؟..

ــ على أبى أن يقوم بشأنى ..

ــ أعلم ذاك أيضا فهذا واجبه ولكن ..

ــ أعرف كل ما وراء لكن .

ــ حامد لم يترك لك شيئا طبعا ..

ــ من أين ؟ أنت تعلم أنه كان مدرسا فى أول حياته ، وكان المرتب

لا يكاد يفي بمطالبنا ..

ـــ اسمعي يا هند ! ربما لم تتح لنا الأيام أن نلتقي كثيرا ، ولكنني أعرف عنك من والدتك كل شيء .. ولك أن تتأكدى أنك ستجدين فى بيت أبيك كل ما تحتاجين إليه ..

ـــ كيف عرفت ذاك ؟..

ـــ أنت ابنة خالة وداد .. وفى مكان الخالة لأولادى .. وتأكدى أننى لو لم أكن واثقا مما أقوله لما قلته ..

ـــ أكاد أفهم ولكن لا أريد أن أفهم . لأننى إذا فهمت ربما تأخذنى العزة ، وربما فعلت مالا ينبغى لى أن أفعل ..

ـــ إذن يحسن بك ألا تفهمى .. كل ما عليك أن تطمئنى .

وذهب من فوره إلى بيت داود الدمراوى . وكما توقع لم يجد الأب هناك ووجد الأم .. وعاجلته رحيمة ..

ـــ هل سيارتك معك ؟ أريد أن أذهب لهند وآتى بها ..

ـــ ستذهبين وستأتين بها ، فقط انتظرى قليلا لنتحدث .. فلى أيام لم أحدثك .

ـــ أرأيت يا صابر ما أصابنا .. مصيبة كبيرة يا بنى يا صابر ..

البنت ما زالت صغيرة .. وكالقمر .. تصبح أرمل وهى فى هذه السن ! وماذا ستفعل .. وكيف ؟..

وقاطعها صابر فى حزم :

ـــ يا خالتى رحيمة اسكتى ..

وفوجئت رحيمة يرتسم على محياها وجوم ذاهل ، وأكمل هو :

— للمرة الأولى وربما الأخيرة أريدك أن تسمعى بدلا من أن تتكلمى .. وللمرة الأولى وربما الأخيرة سأتكلم أنا ..

وظلت على ذهولها وأكمل هو منتهزا فرصة صمتها :

— عم داود ليس صغيرا فى السن والمرض يجهده ، وما يكسبه من الدروس الخصوصية لا يكاد يفى بثمن أدويته .. وأنا أعلم أنكم فى ضائقة وأن وجود هند معكم سيزيد هذه الضائقة إحكاما .. أمسكى هذا المبلغ .. سأقدم إليك كل شهر مثله ، بشرط واحد ألا تعرف خالتى ألفت شيئا ، ولا تعرف هند شيئا ، ولا يعرف عم داود أيضا شيئا .. وإذا احتجت إلى أكثر منه أثناء الشهر ما عليك إلا أن تطلبى منى .. فأنا أعرف أنك تعتبريننى مثل ابنك ، وسيظل هذا الأمر سرا بيننا إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ..

وازداد ذهول رحيمة وحاولت أن تفتح فمها ، ولكنه عاجلها :

— ولا كلمة ..

واخيرا قالت بلسان غير ثابت وبدموع جارية :

— يا بنى لأول مرة لا أجد شيئا أقوله .. إلا كلمة واحدة سأقولها وأصمت :

وسع الله عليك وأكرمك فى نفسك وفى أبنائك !..

— هيا بنا .

— هيا ..

* * *

(٣)

فى ذكاء شديد كان صابر يحرص غاية الحرص على أن يترك عبد الغنى وعبد الودود فى القرية ويذهب هو إلى القاهرة ، ويترك لهما حرية التصرف وهو يرقبهما من بعيد يجتز ما يجتز من تصرفاتهما ويرفض ما يرفض دون أن يُشعِر واحدًا منهما أنه يرفض تصرفه .. بل هو يعالج الأمر فى كياسة وتلطف حتى لا يحرج صاحب الرأى أمام أهل البلدة ..

وفى يوم من هذه الأيام التى انفرد فيها الشابان الصغيران بالأمر لغياب والدهما ، قصد إلى عبد الغنى ناظر الزراعة هنداوى فراج ومعه سعدان الدهموشى مقاول تطهير المصارف وقال هنداوى :

— هل ترك البك معك حق سعدان يا عبد الغنى بك ؟

— نعم ..

— لقد انتهى من تطهير المصارف ..

— لقد مررت عليها ورأيتها ؟..

— مصرفا مصرفا ..

— وهل تظن أنى أصدقك ؟..

— إن لم أكن محل ثقة ما استخدمنى جدك ، وما أبقى على أبوك ..

— نعم .. نعم .. أعرف هذا الموال .. ولكننى غير أبى وجدى ..

— بالتأكيد يا عبد الغنى بك ، أنت غير أبيك وجدك ..

وتدخل عبد الودود فى الحديث محتدا :

ـــ ماذا تقصد بهذا يا عم هنداوى ؟.

ـــ لم يعد هناك داع لكلمة عم هذه .. فإنك أنت وعبد الغنى بك نسيتما أيام كنت أحملكما على كتفى ونسرح فى الغيط ، ونشوى الذرة وتأكلانه ..

ـــ وهل معنى هذا أن تأكلنا ؟..

ـــ أنا يا عبد الودود آكلكم ؟!

ـــ عبد الودود هكذا بلا حياء ..

ـــ لقد كبر الرجل يا عبد الودود و لم يعد يفهم ..

ـــ جاد خيرك يا عبد الغنى أنت وأخوك .. سلام عليكم ..

وانتتر عبد الغنى غاضبا .

ـــ سلام عليكم إلى أين ؟

ـــ إلى بيتى ولكم أب أرد عليه .. إن كان هذا يعجبه يكون لنا كلام آخر .

ـــ ألا يعجبك أنت ؟..

ـــ لا يعجبنى .. ولا يعجب أحدا يعرف معنى احتـرام الصغير للكبير .. سلام عليكم ..

ـــ وفلوس سعدان ؟

ـــ سعدان عندك والمصارف عندك ، افعل ما تريد ..

وصاح سعدان :

ـــ انتظر يا عم هنداوى خذنى معك .. إن الله الغنى عن الفلوس إن كنت سآخذها من البهوات .. خذنى معك ..

وخرج الاثنان وقال عبد الغنى :

— أرأيت أن أبى يدير الأرض بضعف شديد .. وهذا الرجل والذين يساعدونه يأكلون أبى أكلا ..

— إنه ليس له عمل إلا عبادة الله .. أما الأرض فهو لا يهتم بها ويتركها لهؤلاء اللصوص ..

— لو تركها لنا لجعلنادخلنا من الأرض عشرة أضعاف إنتاجها الآن ..

— على كل حال أين ستذهب الأرض إنها لنا آخر الأمر ..

— مت يا حمار .. إن أبى ما زال صغيرا .. هل سننتظر حتى تصبح الأرض ملكنا ؟

— ويلك ماذا تريد أن تفعل ..

— لا .. ليس إلى هذا الحد .. وإنما علينا أن نراقب نحن الأرض ونحاول إبعاد اللصوص عنها ، ونطلب إلى أبينا أن ينشغل هو بالعبادة والتفرغ للفروض والسنن ..

— وهل يقبل ؟

— نسايسه .

— وإذا رفض ؟

— نسكت بعض الوقت ثم نعاود الكرة ..

* * *

(٤)

مر أكثر من عام على موت حامد ، والمرتب الذى فرضه صابر على نفسه لم ينقطع يوما عن يد رحيمة .. وكان صابر يتحرى أن يذهب إلى بيت داود أفندى فى الأوقات التى يكون واثقا فيها أنه سيجد داود خارج المنزل ، وأن حماته ليست فى زيارة لأختها ..

وكان يدخل فتستقبله رحيمة ومعها هند .. وفى ذكاء متفق عليه تقوم هند لتعد له القهوة ويسلم هو الظرف إلى رحيمة .. وحين تعود هند بالقهوة يبدأ الحديث وأغلبه طبعا للست رحيمة ولكن الحديث الطويل الطريف الضاحك لم يستطع أن يمنع نظرات أن تلتقى خلجات وجهين وابتسامات شفاه مختلسة أن تتشابك فى حوار عالمى طويل ، ربما كان جديدا على صابر وربما كان جديدا على هند ولكنه باليقين والقطع ليس جديدا على البشرية منذ أكل آدم تفاحة حواء .. وإن يكن صابر قد تزوج وداد بعد حب ، إلا أنه كان يصارحها بحبه ، وما كان فى حاجة أن يختلس النظرة أو الخلجة أو الابتسامة ..

وإن تكن هند قد تزوجت من حامد .. فإنها لم تكن تدرى ما الحب معه ، فقد تزوجها لأنه تعرف إلى أبيها فى المدرسة ، وعرف أن لديه ابنة جميلة من الزملاء ..

وكان صابر يحرص ألا يجعل زيارته مرة كل شهر ، مدعيا أنه ينبغى أن يزور فى

الشهر مرات حتى لا تعرف هند أنه يقدم إليها معونة .. ويحاول صابر فى جهد جهيد أن يخفى عن نفسه أنه يحب . ويحاول أن يرفض هذا الحب مدعيا أنه ينبغى ألا يتزوج بعد أن فقد زوجه وهواه .. ويحاول أن يقنع نفسه بأن هند هى أيضا ربما ترفض الزواج بعد فقد زوجها .

وتنماع الحجج التى يسوقها لنفسه والتى يتوهمها لهند .. ويفرض الحب نفسه وتفرض البشرية نفسها .. فعندها لا فارق بين عابد وغير عابد ، فكلهم عند مطالبها بشر ، وكلهم .. وكلهم .. عليهم أن يخضعوا لبشريتهم ولهم أن يختاروا طريق الخضوع .. منهم من يختاره فى خفاء عن عيون الناس وفى معصية لشرائع السماء ، ومنهم من يختاره فى عربدة بوهيمية .. ومنهم من يختاره بالطريق المشروع فى نزاهة وشرف ووضوح ..

ذهب صابر فى ذلك اليوم إلى بيت داود .. واستقبلته رحيمة وعلى ملامحها معالج جد غريبة على وجهها .. واستقبلته هند وفى محياها وجوم لم يره على محياها منذ شهور ..

وذهبت هند إلى القهوة المزعومة ، وسارعت رحيمة تقول ..

— يا سى صابر .. هند جاءها عريس ..

ونزل عليه الخبر فى مفاجأة وعجب ، وفكر قليلا ثم ما لبثت نفسه أن عادت إلى رشدها . وما العجب أن أفكارك وتخيلاتك لا تستطيع أن تفرض نفسها على الناس ، وما دمت أنت لم تتقدم فأى عجيبة أن يتقدم غيرك ، وما دامت رحيمه تنهى إليه خبر العريس ومادامت هند واجمة ..

— إنى أخطب إليك هند وأبلغى داود أفندى ، ومستعد

للزواج فورا ..

وانبسط ما كان معقدا على وجه رحيمة .

ـــ هل أنت جاد ؟

ـــ وهل فى هذا هزل ؟

ـــ وأختى .. أتظنها توافق ؟..

ـــ من المؤكد أنها ستوافق .. فأى أم لولدى خير من هند ؟.

ـــ نعم .. ستوافق على بركة الله .

ودخلت هند بالقهوة وعاجلتها أمها :

ـــ ارجعى بالقهوة وهات الشربات لعريسك ..

وابتسمت هند وأطرقت فى خجل لا صنعة فيه ، وعادت لتأتى بالشربات ..

الآن سار الأمر فى طريقه الصحيح ..

(٥)

قال لو لديه :

ــ إنى سأتزوج .

وقال عبد الغنى :

ــ ألم نكبر على الزواج ؟..

ــ من تقصد بالكبر .. أتقصدنى أم تقصد نفسك وأخاك ؟

ــ أقصد الجميع .

ــ أما عنى فكثيرون تزوجوا لأول مرة وهم فى مثل سنى . أما عنكما فلو كنت تزوجت وأنتما صغيران لقيل لكما أتى لكما بامرأة أب تعذبكما .. فإذا انتظرت حتى تصبحا شابين يستطيع كل منكما أن يقوم بشأن نفسه قلت إنكما كبرتما .. وقال عبد الودود :

ــ والخلاصة ؟..

ــ الخلاصة أننى سأتزوج وضميرى مستريح .. والخلاصة ياقليل الأدب أن على الإنسان فى هذه الحياة أن يرضى ربه ويرضى ضميره ويتوكل على الله . ومن يرض بعد ذلك فليرض ، ومن يغضب فليغضب .. اغربا عن وجهى .

وفى استخذاء خرج الابنان حتى إذا أمنا العيون والآذان قال عبد الغنى :

— فليتزوج ألف مرة المهم ألا يأتى لنا بأبناء يشاركوننا فى الأرض والثروة .

وقال عبد الودود :

— ما دام سيتزوج ، فالطبيعى أن يأتى بأولاد .

— طيب فليأت هو بهم وسترى ماذا أنا فاعل ..

— وماذا يمكن أن تفعل ؟

— كل شيء بأوانه .

— ألا أعرف ؟

— وهل سيعرف إلا أنت .. سترى ..

* * *

تزوج صابر بهند .. وحين دخل بها طالعته مفاجأة عجب لها كل العجب .

— كيف ذاك ؟

— وماذا كان يمكن أن أفعل ؟..

— لقد عشت معه ست سنوات .

— هذا حظى ...

— لماذا لم تقولى لأمك ؟

— أمى لا وقت عندها أن تسمع شيئا ، وخاصة إذا كانت الأخبار التى ستسمعها غير سعيدة ..

— أتعنين أنه لم يقترب منك ..

— رحمة الله عليه،قبلنى يوم الدخلة وأفضى إلىّ بالحقيقة ..

ــ ولماذا قبلت ؟

ــ خجلت .

ــ أى سنوات عشتها !!

ــ قلت فى نفسى هذا حظى المقسوم ، وعلى أن أحتمل ..

ــ وهو كيف قبل ؟

ــ كان يريد أن يبدو أمام الناس رجلا ..

ــ على حسابك ؟

ــ المهم أنه أمام الناس زوج .

ــ ومن أجل هذا يفرض عليك رهبنة ، الله يعلم إلى متى كانت ستظل مفروضة عليك .

ــ رحمه الله !

ــ ولكنك حزنت لأجله .. نعم حزنت .. أنا أعرف الحزن حين أراه ..

ــ عشرة لا تهون .. ومات صغيرا ..

ــ ولكنه كان قد فرض عليك الظلم .

ــ كان يحسن معاملتى ..

ــ هل بشَر هذا الذى أراه فيك .. أم نوع من الملائكية لا تعرفه البشرية ..

ــ بل إنسانة .

ــ فى أعلى مراتب الإنسانية .

ــ لا تبالغ ..

— بل إنى مقصر فى الوصف .

— أكنت تعرفين أنه مريض ؟

— لقد مرض ومات فى ثمان وأربعين ساعة ، كان قبلها فى أتم صحة وعافية .. بل إننى لا أذكر أنه مرض مرضا يستحق أن يطلب من أجله إجازة طوال سنوات زواجنا ..

— كم تعذبت !

— وحدى ولا يدرى أحد .

— كنت أرى فى عينيك أسى ووحدة وألما دفينا ..

— ولكن أمى لم تر من ذلك شيئا .

— أمك هذه شخصية فريدة فى نوعها .

— لو رأيت كم كانت تلح على أن أذهب إلى الأطباء ليعرفوا السبب فى عدم إنجابى لدهشت ..

— وماذا كنت تقولين لها ؟..

— أقول لها الله هو الرازق اتركيها على الله . وطبعا لم أذهب إلى طبيب ..

— وهى ألم يدهشها إصرارك على الرفض ؟..

— كانت تفرغ دهشتها بأن تروى أمرى للناس وتجعل من حكايتى موضوع حديثها .

— نعم أنت محقة .. طالما سمعته منها ..

— وكانت تأتى إلى بالوصفات والأحجبة ..

— وتعتقد أنها قامت بواجبها ..

ـــ هكذا هى ..

ـــ أنت عظيمة يا هند .

ـــ لعل الله أن يكرمنى بك .

ـــ أعدك أنك لن ترى منى إلا ما يرضيك ..

ـــ وأنا أعرف صدقك عندما تعد .. بل أنت صادق فى كل ما تقول أو تفعل ..

ـــ إن الصدق عبء ثقيل .. أعاننى الله عليه !.

ـــ سيعينك إن شاء الله .

ـــ الآن عرفت أننى أثير عند ربى .. فإن الإنسان يكون فى قمة السعادة إذا وهبه الله زوجة صالحة .. وها هو ذا سبحانه يهب لى زوجتين صالحتين .

ـــ رحم الله وداد !.. كانت صالحة .

ـــ وأنت صالحة وصابرة ، وفيك ملائكية لا أعرف أن أحدا من النساء تقاربك فيها .

ـــ أنت تبالغ ..

ـــ أكرمك الله كما أكرمت زوجك الأول وكما سترت عليه ..

ـــ سيكرمنى بك إن شاء الله .

* * *

(٦)

التحق عبد الغنى بكلية الزراعة ولحق به عبد الودود فى العام التالى . وبعد أن كان سيرهما فى الدراسة من ذلك النوع المتوسط الذى لا نبوغ فيه ولا نكوص ، فكلاهما لم يسقط ولكن نجاحهما دائما كان نجاحا غير مرموق .. إذا بهما كلاهما ينبغان فى الزراعة نبوغا يدعو إلى دهشة من يراقبهما .. وأدرك الأب من هذا النبوغ المفاجئ ، ومن شواهد أخرى كثيرة أنهما يتعجلان التحكم فى الأرض تحكما كاملا . وإن كان كل الآباء يسعدون بأن يصبح أبناؤهم نبغاء .. فإن شيئا كالغصة كان يقمع الفرح فى نفس صابر .. فما أحب إليه أن تكون الأرض عزيزة عند ابنيه .. ولكن ما أشد كراهيته أن تصبح الأرض هى العزيز الوحيد عند ولديه ، فقد كان المال عنده وسيلة ليعيش كريما على نفسه وعلى أسرته وعلى الناس . ولم يكن المال عنده فى يوم من الأيام غاية فى ذاته ..

وباقتراب صابر من رحاب الله أصبح ذا نفس شفافة ترى مالا يراه سائر الناس ، وبنوع من الروحانية التى لا يعرف البشر مأتاها كان يحس بمواطن الخطر المتخفى وراء أستار الطمأنينة والبشريات ..

* * *

كان الأخوان لا يفترقان إلا إذا ذهب كل منهما إلى محاضرته ، ثم هما متلازمان فى الكلية وفى البيت وفى القرية .

* * *

بعد شهرين من زواج صابر بهند بدأت أعراض الحمل.. وجاء الطفل فى موعده المقدور مشرقا إشراقة لم يعهدها صابر فى ولديه ..

ــ ماذا سنسميه ؟

ــ كنت أرجو أن يكون لابنىّ أخت ، أستحضر أسماء البنات لا البنين ..

ــ أغضبت أن جئت لك بولد ثالث ؟..

ــ أيغضب أحد من مجئ ولد ؟ فكيف بمؤمن بالله إيمانى .. وكيف إذا كان الغلام بهذا الإشراق ؟.. إن النور يبهر من ينظر إلى مهده ..

ــ فماذا نسميه ؟..

ــ أرى أنك تضمرين له اسما ..

ــ كان يدرس لى فى المدرسة شيخ طاهر وضئ السمت والضمير كنت أشعر بالسعادة كلما رأيته ، وكنت أحرص دائما أن أقبل يده فى كل صباح .. وكان أملى أن يهب الله لى غلاما وأسميه باسمه ..

ــ صدّيق إذن ؟

ــ أتعرفه ؟

ــ طالما ذكرته لى ونحن نسمر .. هل نسيت ؟

ــ كانت أحاديث عابرة .

ــ اسمعى ! لقد كنت أنوى أن أسميه صديق ، ولكنى أردتك أنت أن تسميه .. فقد خشيت فى نفسى أن يكون حبك للشيخ من قبيل التبرك والإعجاب فقط ، وليس لدرجة أن تسمى ابنك الأول على اسمه ..

ــ هذا أملى .

ـــ وليكن صديقا على بركة الله ..

* * *

وقال عبد الغنى :

ـــ إذن فقد أنجب الشيخ الزاهد .

وقال عبد الودود :

ـــ أليس من الطبيعى أن تلد الزوجة لزوجها ؟..

ـــ أنت غبى .

ـــ أى غباء فى أن يتزوج اثنان فتلد الزوجة .. أوَ لم تكن تعلم أنها ستنجب منذ عرفت أنها حامل ؟..

ـــ كنت أعرف طبعا ، وكم صليت ورجوت الله ألا تكمل حملها ..

ـــ وأى سر فيك يجعل دعاءك عند الله مجابا ؟

ـــ وها هو ذا لم يستجب ، ولكنك أيضا غبى ما تزال ..

ـــ أنا موافق ، فقط أخبرنى فيم غبائى ؟

ـــ ألا تدرى أن هذا الولد سيجعل ميراثنا ينقص بمقدار الثلث ، غير نصيب الثمن الذى ستحظى به هند هانم إذا عاشت بعد أبى ..

ـــ أمن أجل هذا ترانى غبيا ؟..

ـــ طبعا .

ـــ ولكن النتيجة التى وصلت إليها لا تحتاج إلى أى ذكاء ، فما دام قد أنجب فلا بد أن يرث ابنه ..

ـــ هذا إذا عاش الابن ..

وفزع عبد الودود فزعا شديدا .

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ ألم تسمع ؟

ـــ فقط أتعجب .

ـــ الموت حق .

ـــ على كل البشر .. ماذا الذى جعلك واثقا أننا سنعيش بعد موت أبينا ؟..

ـــ سنة الحياة ..

ـــ وهل سارت الحياة دائما على هذه السنة ؟..

ـــ الاستثناء لا يقاس عليه ..

ـــ ألم تقدر أننا قد نرث ثم لا يكون لنا بنين أو بنات ، فيرث صديق كل ما نملك .. إنه أصغر منا بسنوات طويلة .. إنه ولد ونحن فى الجامعة فمن طبيعة سنةالحياة أن نموت قبله ..

ـــ من الذى يشكل الحياة ؟

ـــ الميلاد والموت لا يشكلهما إلا الله .

ـــ أما الميلاد فنعمة .. أما الموت ..

ـــ أتريد أن تشارك الله فى ملكوته ؟..

ـــ أدافع عن حقى .

ـــ ولكنه حق صديق أيضا .

ـــ من قال له يأتى ونحن فى هذه السن .

ـــ إذن لو كنت تكبرنا بعشر سنوات لقتلتنى ..

ـــ الأمر مختلف .. لقد تعودت وجودك ، واستقر فى ذهنى أن ليس لأبينا وارث إلا أنا وأنت ..

ـــ ولكن الأمر تغير .

ـــ نغيره مرة أخرى .

ـــ كيف ؟

ـــ سترى ..

* * *

حرص صابر أن يبقى صديق فى غرفة نومه منذ مولده .. وأمر هند أمرا صارما ألا تفارقه لحظة .. ألم أقل لك إنه قريب من الساحة الربانية ؟..

(٧)

بلغ صديق الخامسة من عمره، وكان قريبا كل القرب من أبيه يكاد لا يتركه لحظة من حياته . بل إنه كان يصحبه كلما خرج لزيارة أصدقائه .. ودون أن يدرى جعل صديق لا يعرف ساحة اللعب التى يهفو إليها الأطفال . فهو أغلب وقته مع أصدقاء أبيه فى مجالس الكبار .

ولكنه طفل .. وللطفل رغبته العارمة فى اللهو والمراح .. وأدركت هند ما يصبو إليه طفلها ..

ــ يا صابر ألا تترك صديق يلعب مع الأطفال ..

ــ هل شكا إليك ؟

ــ هو لا يحتاج إلى الشكوى .

ــ سيدخل المدرسة هذا العام .

ــ وهذا ألعن .. ينتقل من الجلوس إلى الكبار ليجلس إلى الدرس والمدرس ..

ــ افعلى ما شئت ..

ــ اتركه لى قليلا .

ــ ما ترين .

وحاولت هند أن تنشئ له علاقات مع أطفال من سنه .. وبدأ صديق يعرف لهو الطفولة .. ولكن لم يكد .. فما أسرع ما لقفته المدرسة ..

وبدأ ينتظم فيها ...

ويشاء بارئ النفوس أن تكون صحبة صابر لصديق نعمة لـه أى نعمة .. فقد وجد صديق نفسه فى المدرسة لمتقدما يستمتع بالدرس الذى يضيق به جميع الأطفال ، ووجد نفسه فى فناء المدرسة محبوبا من إخوان ملعبه يجدون فيه وقارا لا يتسنى لأحد منهم . ودون أن يشعر هو أو يشعر زملاؤه أصبح زعيم الأطفال وقبلتهم .. كلمته بينهم مسموعة مستجابة .. فلا خلاف ينشب إلا قضى عليه صديق . وزاده بينهم مكانة تفوقه المذهل فى الدراسة ، وكان مجرد سماعه للدرس يجعله يحفظه وكأنه قرأه عشرات المرات .

ومرت سنة دراسة وانتقل بيت صابر إلى القرية .. وما إن يستقر بهم المقام حتى يقول عبد الغنى لأبيه وهم جلوس إلى مائدة الغداء .

ـــ بابا .. نريد أن نذهب إلى المصيف ..

ويصمت صابر قليلا ويقلب الأمر فى ذهنه ..

ـــ ما المانع ؟.. فكره وجيهة .

وتقول هند :

ـــ إى والله لماذا لا ؟

ويقول صابر :

ـــ أتفكر فى مصيف خاص يا باشمهندس ؟..

ـــ باشمهندس مرة واحدة !

ـــ ألم تتخرج فى الزراعة وأصبح لقبك المهندس الزراعى .

ـــ والله أنا أفكر فى الإسكندرية .. ما رأيك أنت يا با شمهندس عبد الودود ؟

ويضحك عبد الودود وينظر لأبيه ..

— أنا أوافق على أى مصيف .

ويقول صابر :

— مارأيكم فى رأس البر ؟

ويقول عبد الغنى ..

— لماذا اخترت رأس البر ؟

ويقول صابر :

— مصيف هادئ ، ولا أخشى على أخيكم صديق ..

* * *

وفى رأس البر يحاول عبد الغنى أن ينفرد بصديق فى البحر فتضيق عليه المسالك .. ويقطع أبوه عليه كل تدبير دون قصد فهو معهم دائما ، وهو حريص كل الحرص أن يكون صديق فى ذراعه .. وقد عن له منذ اللحظة الأولى لنزولهم إلى البحر أن يعلمه العوم .. ولكن عبد الغنى يقول له :

— يا بابا هذا العوم يصلح لترعة البلد ولا يصلح للبحر الأبيض المتوسط ..

ويضحك صابر وهو يقول :

— أليس كله عوم يا باشمهندس ؟

— لا ، هناك العوم الذى يجعل الإنسان طافيا ، وهناك العوم المبنى على قواعدوأصول .

— أتعرف أنت هذا العوم ؟..

— تعلمته فى الكلية على يد مدربين .

ـــ أتريد أنت أن تعلم أخاك ..

ـــ طبعا ، إذا علمته أنا سيكون هناك فارق كبير بين تعليمي وتعليم سعادتك ، مع احترامي الشديد ..

ـــ ولكنني أرفض أن أشغلك بهذا ، وأنت قادم هنا للمتعة .

ـــ إنها متعة لي إنها متعة لي أن أعلم أخي ..

ـــ لا أظن . وعلى كل حال سأفكر في الأمر ..

وكان صابر وهند يصحبان صديق إلى الشاطئ كل يوم ، بعد أن يتناولوا الغداء ويصيبوا نومة القيلولة .. وكان عبد الغني وعبد الودود يقصدان إلى الجانب الآخر من رأس البر على النيل حيث الفنادق ذات الجلسات المرحة ... حيث يجمع النيل على ضفته الشباب والشيوخ .. أما الشيوخ فيلعبون النرد أو الضمنه ، أو يسمرون مكتفين من الجمال بالنظر . أما الشباب فيمرح ما شاء له المرح في الأضواء المتلألئة من الكهرباء ، ومن الهواء ومن الهوى ، ومن شلالات السنين الخضر التي تريد أن تستوعب الحياة كلها في لحظة من عمر الزمن .

وبعد ذلك الحديث عن العوم كان صابر يجلس على الشاطئ مع صديق وهند ، وكانت هند تشعر أن صديق مظلوم معهما في جلستهما هذه وكانت تفكر . ولم يطل بها التفكير فقد رأت أطفالا في مثل عمره يلعبون الكرة ، وفكرت كيف تستطيع أن تجعله يشاركهم اللعب دون أن تفرضه عليهم فرضا .

استأذنت زوجها ..

ـــ صابر .. سأغيب عنك بعض دقائق ..

ـــ إلى أين ؟

ـــ ستعرف .

ـــ مفاجأة ؟.

ـــ ربما .

ـــ أمرك ..

وانصرفت ، وخلا صابر بنفسه لا يجد ما يقوله لصديق كما لم يجد صديق ما يقوله لأبيه .. ودون قصد وجد صابر نفسه يفكر فيما قاله عبد الغنى عن تعليم العوم ..

ليس من حقى أن أحرم عبد الغنى من متعة العوم مع أخيه وصحبه لأجعله يعلم أخاه العوم .. قد يطيق هذا يوما أو يومين ثم يضيق بالأمر . ولكن عبد الغنى محق فى أن صديق يجب أن يتعلم العوم على أسسه الصحيحة وليس بطريقة عوم الترع التى تعلمت أنا بها .. هذا البحار لا بد أنه يتقن العوم ..

ـــ يا حاج ..

وجاء البحار حارس الشاطئ .

ـــ تحت أمرك يا بك ؟

ـــ ما اسمك ؟

ـــ مهدى الحوت .

ـــ حوت مرة واحدة ؟

ـــ أسماء يا بك ، عائلتنا اسمها عائلة الحوت من دمياط من قبل أن يأتى إليها نابليون ..

— يا مرحبا يا عم مهدى .

— مرحبا بك يا سعادة البك .. أظن سعادتك أول مرة تشرفنا يا ضابر بك .

— أتعرف اسمى ؟

— واسم أبيك ولا مؤاخذة .. وبلدك وكل شيء عنك .

— كيف ؟

— منذ استأجرت للاصطياف هنا عرفنا كل شيء عنك ..

ودهش صابر غاية الدهشة :

— مخابرات ؟

— أبدا يا بك ، فقط نريد أن نعرف مع من سنتعامل فى موسمنا .

— مشهورون أنتم بالذكاء يا أهل دمياط .

— هذا من ذوقك يا صابر بك .

— قل لى يا مهدى .

— تحت أمرك .

— أنت حوت فعلا أم هو اسم فقط ؟

— هذا يتوقف عما تقصد بالحوت .

— وماذا يمكن أن أقصد ؟

— إن كنت تعنى أننى جشع ، أو أننى أبتلع الأسماك الأخرى فأنا لست حوتا ..

وضحك صابر حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

— بل أقصد هل أنت حوت فى العوم أم لا ؟

ـــ آه من هذه الناحية أنا ـــ والحمد لله ـــ أعظم من الحوت .. تعلمت العوم قبل أن أتعلم المشى .. ونحن يا بك لا نعين هنا إلا بعد اختبارات دقيقة ..

ـــ عظيم ! إننا سنصبح أصدقاء أيها الحوت العظيم .

ـــ تحت أمرك .

ـــ أريد أن تعلمنى وتعلم ابنى هذا العوم .

ـــ من عينى الاثنين ..

ـــ نبدأ من الغد .

ـــ ومن الآن إذا أردت ..

ـــ غدا نبدأ .

ـــ يحسن أن يكون هذا فى باكر الصباح ، حتى لا يكون البحر مليئا بالمصطافين .

ـــ البركة فى البكور .. أنا وابنى نصلى الفجر حاضرا والحمد لله .

ـــ إذن نأتى إليك فى السابعة ..

ـــ على بركة الله .

وانصرف مهدى ، وما هى إلا دقائق حتى أقبلت هند فى يدها كرة غاية فى الأناقة أعطتها لصديق وقالت له :

ـــ قم فالعب بهذه الكرة .

ـــ وحدى يا نينا ؟

ـــ أنا سألعب معك .

وصاح صابر :

— وأنا أيضا .

وفرح صديق وهو يقول :

— حقا ؟

وقام ثلاثتهم ، وما أن ظهرت الكرة تتألق على ضوء الشمس التى بدأت تستعد للرحيل ، حتى تحلق الأطفال الآخرون حول صديق ووالديه . وما هى إلا لحظة من زمن حتى كان صابر وهند جالسين وكان الأطفال قد أصبحوا أصدقاء ملعب وكأنهم يعرفون بعضهم البعض منذ ولدوا ..

وأى شىء يمكن أن يحول بين الأطفال وبين الصداقة ؟ نفوس الجميع منهم جديدة وضيئة صافية كأنها البللور . لا يطمع أحد منهم فى الآخر ولا يرجو واحد منهم عند الآخر غنيمة .. ولا تحقد نفس منهم على نفس . أبرياء هم كالطهارة ، أنقياء كمياه السحاب . أصفياء كالنور .. متألقون كالأمل .. خلجات الحياة هم ،. وإشراق الدنيا لم يزحف عليها غيوم الغروب

تقدم مهدى الحوت إلى صابر وهند وهو مبهور ..

— ربنا يحميه ابنكم جماله ليس له مثيل ..

— بارك الله فيك !

— أنا لا أجامل .. أنا أشاهد آلاف الأطفال .. لم أر جمالا مثل هذا الجمال ..

— فضل من الله .

— الجمال موهبة من عند الرزاق الكريم ..

ــ نحمده ونشكر فضله .

ــ البنات من لحظة نزوله للعب يحطن به يكدن يأكلنه أكلا ..

وتقول هند :

ــ يا راجل يا طيب إنهن أطفال ..

ــ أى نعم ، ولكنهن بنات ويعرفن كيف يقدرن الجمال .. ربنا يحميه ..

وانصرف عنهما وترك الأب سعيدا والأم تتلو ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ..

* * *

(٨)

كان عبد الغنى وعبد الودود يمشيان على نيل رأس البر بغير هدف ولا غاية .. وعن لعبد الغنى أن يجلسا إلى مقهى يرقبان منها الغاديـن والرائحين . أو إن شئت الدقة الغاديات والرائحات . وما كادا يجلسان وقبل أن يرشفا الرشفة الأولى من زجاجة المياه الغازية ، حتى علا باسم كل منهما صراخ فرحان التفتا إليه فإذا هما إزاء زميلتيهما فى الدراسة رنده الدجوى وبجانبها فتاة تشبهها كل الشبه ، فاستنتج الأخوان فى لمحة خاطفة أنها أختها ..

ـــ عبد الغنى صابر وعبد الودود .. ماذا تصنعان هنا ؟..

ـــ من نفسنا ، أليس لنا حق الفسحة مثلك ؟.. اقعدى ..

ـــ وما البأس ؟ تعالى يا هند أعرفك بالأخوين المتلازمين ..

وصاح عبد الودود فى رنة إعجاب تخافت معها صوت عبد الغنى :

ـــ أهلا ومرحبا ناهد هانم .

وفى تهريجها ما تزال صاحت رنده :

ـــ هانم مرة واحدة .. قل مدموزيل يكون الكلام معقولا .. حضرته يا ستى عبد الودود صابر الأخ الأصغر ، قدمته عن أخيه الأكبر لأجل خاطر لقب هانم الذى أنعم به عليك .. وحضرته أخوه الأكبر عبد الغنى .. كل منهما ظل الآخر ، لاترين الواحد منهما إلا ملاصقا للآخر .

وضحك عبد الغنى وهو يقول !

— وأنت ماذا يغضبك فى هذا ؟.

— متى جئتم إلى رأس البر ؟

— من يومين فقط .

— نحن جئنا بالأمس .. وهذا أول يوم لنا نتمشى على النيل .. هل وجدت هنا أحدا من الإخوان ؟

— أنا مشيت هنا بالأمس فقط ، وكانت عينى تائهة لم أستطع أن أتبين الوجوه .

— أنت وعبد الودود أول اثنين أعرفهما على النيل. ماذا تنويان أن تفعلا الليلة؟.

— هل عندك أنت فكرة ؟

— هناك مركب ذاهبة إلى الجربى وفيها بعض شبان ، وأنا وناهد نريد أن نذهب ولكننا لا نستطيع أن نذهب وحدنا بلا رجل نعرفه .

— ها قد وجدت رجلين .

— هل أنت متأكد ؟

— عمى فى عينك ، وهل ستجدين رجالا أحسن منى أو من أخى ..

— والسلام .. الموجود يسد .

ويضحك عبد الودود فى مرح شديد .. ويقول له عبد الغنى :

— علام تضحك يا أهبل ؟.. هل تعجبك قلة أدبها ؟.

ويلتفت عبد الودود إلى ناهد ويسألها :

— أنت يا مدموزيل ناهد ما أريك .. هل نصلح أنا وأخى لمهمة الصحبة هذه ؟..

وتضحك ناهد فى جاذبية ..

ـــ رنده زميلتكم وهى التى تعرف .

ـــ إذن فأنت موافقة على رأيها ..

* * *

وكانت ليلة من ليالى العمر .. كان ركاب المركب كلهم من الشباب ، وأزال السن ما بينهم من غربة فأصبحوا كأنهم أصحاب عمر بأكمله .. وحكم الراكبون على الفتيات أن تقوم بينهم مسابقة فى الرقص فازت فيها ناهد بالمرتبة الأولى . وكان القمر واحدا من الرفقة قد غدت أضواؤه أوتار الهوى فى الصدور . وعلت الموسيقى أحيانا ، والضحك والسرور كانا صاحبى السيادة على الليلة جميعها .

* * *

تكررت اللقاءات وبدأت الرغبات فى نفس عبد الغنى وعبد الودود تحتدم . ولكن الفتاتين رفضتا إلا أن يكون الشرع هو الرباط بينهم .

ـــ وماله ؟

ـــ هل نتزوج ؟

ـــ تخرجنا ومن الطبيعى أن نتزوج ، فما البأس ؟.

ـــ ألا ترى أن الفتاتين متحررتان أكثر من اللازم ؟.

ـــ وأرى أيضا أنهما شريفتان .

ـــ لا شك . وكل الفتيات متحررات . وحسبنا أننا واثقان من شرفهما .

ـــ هل عرفت شيئا عن أبيهما ؟

ــ عرفت القليل ، إنما من الواضح أنه ميسور الحال وإلا لما استأجر شقة للمصيف طوال فترة الصيف .. وأنت ترى أن الفتاتين تلبسان أفخر الثياب ..

ــ ألا يهمك شيء إلا المال يا عبد الغنى ؟

ــ وهل هناك ما هو أهم منه ؟..

ــ ولكنك فيما أعتقد لم تأت إلى رأس البر لتتزوج ..

ــ الولد صديق ملازم لأبينا .. وجاءنا أيضا الحوت فعلمه العوم على أصوله ..

ــ هل يئست ؟

ــ من رأس البر نعم .

ــ ولكنك لم تعدل عن فكرتك .

ــ هيهات .. ها نحن هذان سنتزوج وسننجب أطفالا طبعا .

ــ هل أنت واثق ؟

ــ هذا هو الطبيعى ، من يتزوج ينجب غالبا .

ــ فلماذا تنكر هذا الحق على أبينا ؟

ــ لانه أبونا .

ــ أهذا ذنبه ؟

ــ هذا قدره .

ــ المهم ستكلم أنت أبى أم أكلمه أنا ؟

ــ نكلمه معا .

— على بركة الله .

* * *

وأقام صابر لولديه فرحا باذخا ، واستأجر لكل منهما شقة بعمارة واحدة حتى يظلا متلازمين كما تعودا طوال حياتهما ، وأتاح لهما فرصة أوسع فى إدارة الأرض وإن لم يترك لهما الأمر جميعه .

وخلا البيت بهند وصابر وصديق .

* * *

(٩)

بدأ عبد الغنى ينهج نهجا جديدا نحو أخيه صديق دهش له صابر بعض الدهشة ، ولكنه فرح به كل الفرح ..

صار عبد الغنى يعنى عناية فائقة بشأن صديق .. ويذهب إلى مدرسته فى فترات متقاربة ويبلغ أباه بسعادة مقدار تفوق صديق ، وإعجاب المدرسة به من ناظر إلى أساتذة إلى تلاميذ . وشارك عبد الودود فى هذه العناية مشاركة غير خافية، وظن صابر فى براءته وهند فى نقائها أن الكبيرين يرعيان أخاهما الأصغر شكرا لما هيأه لهما أبوهما من حياة زوجية مستقرة وبيت سعيد لكل منهما .

وحين حاول الأب أن يتعمق الأمر .. لعلهما الآن يحسانَ باقترابهما من الأبوة ، وربما راوحت نفسيهما هذه العواطف فهزت حنايا الحب والأخوة معا نحو أخيهما الذى يكاد أن يكون منهما بمكان الابن أيضا .

وهكذا لم يكن غريبا أن يأتى عبد الغنى إلى أبيه :

— اترك لى صديق أخرج به إلى الدنيا .

— أخاف عليه .

— منى ؟

— من غيرك .

— سأخرج به أنا وعبد الودود وزوجتانا .

— أين تذهبون به ؟

— إلى حيث يلعب هو ونتسلى نحن .

— أين ؟

— إلى الملاهى .

— الملاهى ؟

— مالها ، أليست للأطفال ؟

— إى نعم ، ولكن ألعابها خطرة .

— ونحن معه !!؟

— الآلات لا قلب لها ..

— ولكن قلوبنا معه .

— أخاف عليه .

— توكل على الله .

وصحب عبد الغنى صديق إلى الملاهى وذهب معه عبد الودود والزوجتان . وفى الملاهى أوكل عبد الغنى إلى رنده وناهد أمر صديق . وجلس هو مع أخيه فى مقهى الملاهى يقطعان الوقت بالحديث .. وسار صديق مع زوجتى أخويه وكانتا عنه لاهيتين ، وإنما هما تمران فى شبه تأدية واجب ليس حبيبا على ألعاب الملاهى ، وهو وراءهما لا يسألانه عما يجب أن يشترك فيه من ألعاب . وأحس صديق بالعطش فتسلل دون أن تحس به الأختان إلى المقهى ورأى من بعيد أخويه منهمكين فى الحديث . فقصد إلى داخل المقهى وطلب ماء ، وحين هم بالخروج من الداخل سمع اسم صديق على لسان أخيه عبد الودود ، فاقترب من أخويه دون أن يرياه وسمع

عبد الغنى يقول :

ـــ لا بد أن أنتهى منه اليوم ..

ـــ يا أخى أجلها إلى يوم آخر ..

ـــ إن ابى لم يسمح لى باصطحابه إلا بجهد شديد ، فكيف أطمئن إلى أنه سيسمح بذلك مرة أخرى .. أقتله اليوم .

ـــ وماذا أنت قائل لأبيك ؟

ـــ وقع .. مات .

وارتعدت فرائص صديق ، وأيقن أن الحديث عنه فتراجع عن مكانه حذرًا أن يراه واحد من أخويه.. حتى إذا اطمأن أنه ابتعد عن المكان تلمس طريقه إلى خارج الملاهى يبحث لنفسه عن ملجأ من قاتليه ..

وراح يعدو يعبر الشارع المزدحم بالسيارات ، فإذا بسيارة تصدمه ويغيب عن الوعى ..

نزل راكب السيارة وحمله ووضعه فى المقعد الداخلى وأجلس زوجته بجانبه . وانطلق بالسيارة قبل أن يتجمع الناس حوله ، وما لبثت السيدة أن قالت :

ـــ قلبه ينبض .. لا تخف .

ـــ أليس به جروح ؟

ـــ جرح بسيط بجبهته .

ـــ أنذهب إلى المستشفى .

ـــ لا داعى .. اذهب بنا إلى البيت .. ما الداعى للمستشفى و س و ج . الولد ليس به شىء ..

— هو الذى كان يجرى ..

— هل نحن فى تحقيق ؟.. اذهب إلى البيت .

وقبل أن يصلا إلى البيت كان صديق قد أفاق من غشيته ، وتلفت حواليه غير مصدق أنه نجا . وسألته السيدة :

— الحمد لله على سلامتك .

— من حضرتك ؟

— ستعرف كل شىء .

— وإلى أين نحن ذاهبون ؟

— إلى بيتنا .

— بيتكم أنتم ؟

— نعم أم تحب أن نذهب بك إلى بيتك ؟

— بيتى .. بيتى .

وتذكر صديق وتملكه الهلع ، وصاح فى عفوية وفى غير تدبر :

— أنا ليس لى بيت .

— كيف ؟ هل هناك أحد ليس له بيت ؟

فقال فى تلجلج :

— أقصد أننى لا أعرف بيتنا .

— ما اسمك .

ودون روية قال :

— صديق .

— واسم أبيك .

واسترد صديق وعيه وأدرك انه يحاول أن يهرب ، فسكت قليلا وقال :

ـــ إبراهيم .

ـــ إبراهيم ماذا ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ وأين تسكن ؟

ـــ لا أدرى .

ـــ كنت مع من فى الملاهى ؟

وأدركه الهلع وهو يتذكر ، ووجد نفسه يقول :

ـــ كنت .. كنت وحدى .

ـــ كيف ؟

ـــ لا أدرى .

وأدرك الزوجان أن الطفل يخفى أمره فى إصرار .. وقالت الزوجة :

ـــ أنت تأتى معنا إلى البيت ثم نبحث الأمر ..

وهوم صمت .. وكان صديق لا يخشى شيئا قدر خشيته أن يعرفه هذان الزوجان ويعيداه إلى بيت ابيه ، فقد أصبح على ثقة أنه لن ينجو من القتل ما دام أخواه يضمران هذه النية .. وثبت فى روعه أن أباه لن يستطيع أن يحميه . بل إن الخوف صور إليه أن أباه قد لا يطول به العمر .. وحينئذ من يحميه من هذين الأخوين ؟.. كان صديق مذعورا ملتاعا هالعا أسيفا فقد كان يحب أخويه غاية الحب .. وهاله ما ظهر له من دخيلة نفسيهما ..

تولاه صمت صاخب يفكر فيما ينتظره من قابل الأيام .

وبلغت السيارة منزلا قريبا من صحراء .. ونزل ثلاثتهم ..
وراحت السيدة تضمد الجرح الصغير فى جبهة صديق .. حتى إذا هدأ روعه أو خيل إلى الزوجين أن روعه هدأ سأله الزوج :

ــ أكل ما تعرفه أن اسمك صديق إبراهيم ؟

ــ أين تسكن ؟

ــ لا أعرف .

ــ أتذهب إلى مدرسة ؟

ــ أذهب .

ــ أين تقع ؟

ــ لا أدرى .

ــ يا ابنى لقد أوقعتنا فى حيرة بالغة .

وقالت الزوجة :

ــ نبقيه عندنا بضعة أيام ونرى .

وقال الزوج :

ــ أنسيت أننا مسافران إلى أوربا الأسبوع القادم ؟

ــ من اليوم إلى يوم السفر يحلها الذى لا تغفل له عين ..

ــ ألا ترين أن نبلغ الشرطة ؟

وفزع صديق صائحا :

ــ لا .

وعجب الزوجان وقال الزوج :

ــ لماذا تخاف من الشرطة يا صديق ..؟

ولم يجد صديق ما يجيب به ، وعاد إليه الزوج يسأله :

— أين كنت قبل أن تصدمك السيارة ؟

— كنت .. كنت .. كنت فى الملاهى .

— وحدك ؟

وبعد تردد طويل قال :

— رحلة مع المدرسة .

— ولماذا تركت مدرستك ؟

— تهت .. وكنت أبحث عنهم .

وتقول الزوجة :

— يا وجدى أنا خائفة ... ولا بد أن نبلغ الشرطة .

وفى فزع صرخ صديق مرة أخرى :

— لا ..

وتعجب وجدى وسأله :

— ما الذى يخيفك من الشرطة ؟

— لا أحب الشرطة ..

— ألا تريد أن ترجع إلى أبيك وأمك ..

وفى عفوية طفلة قال دون ريث من تفكير :

— لا .

— أنت طبعا لا تعرف عنوان بيتكم ..

وفى سرعة فائقة :

— لا .

— ولا الحى الذى تسكن فيه ؟

— لا .

والتفت وجدى إلى زوجته ..

— إن فى الأمر سرا .

وقالت الزوجة :

— عجيب أمر هذا الطفل .. أنا لم أر فى حياتى طفلا فى مثل جماله ، بل إننى أعتقد أن الله لم يخلق طفلا على صورته .. أبدا .. كيف لا يضعه أهله فى أعينهم ؟.

وهوم صمت فيه حديث وضجيج وصراع ، وآمال ومخاوف ، وهلع قاتل وإعجاب أخاذ ، وتردد بين إقبال وإحجام

وقطع وجدى الصمت قائلا :

— خذى صديق إلى حجرة نوم ليستريح قليلا ، وأنا سأذهب وأشترى له بعض ملابس بدلا من حلته التى تمزقت فى الحادثة ..

وفى ذكاء المرأة قالت الزوجة زهيرة :

— فيم تفكر يا وجدى ؟

— نتحدث بعد أن نعود .

والتفتت زهيرة إلى صديق :

— ألست جائعا يا صديق ؟.

وفى براءة وصدق :

— أكاد أموت من الجوع ..

ـــ سأعد لك طعاما ، وادخل أنت إلى الحمام أتعرف كيف تستحم .. أم أن والدتك هى التى كانت تتولى هذه المهمة ؟..

وفى تردد تلجلج لسانه قائلا :

ـــ بل .. بل .. أعرف .

ولكن زهيرة أدركت تهيبه وقالت :

ـــ تعال سأتولى أنا حمامك .. تعال .

* * *

(١٠)

صرخت الفرملة فى الملاهى جحيما حين ضغط عليها وجدى فى محاولته لإنقاذ صديق .. والتفتت الرءوس جميعا إلى مصدر الصوت .. وهرع عبد الغنى يلحق به عبد الودود إلى الطريق العام .. ورأيا صديق ملقى على الأرض . وفغر عبد الودود فمه وأوشك دون ريث من تفكير أن يصيح بالاسم ، ولكن عبد الغنى عاجله بلكزة قوية فى صدره جعلت صيحته تتحول تلقائيا إلى :

ـــ آه ..

وهمس :

ـــ ولا كلمة .

وشاهد الأخوان وجدى يحمل أخاهما ويضعه فى السيارة وينطلق قبل أن تتاح فرصة لرواد الملاهى وعابرى السبيل أن يتجمعوا حول الحادثة ..

وهمس عبد الودود :

ـــ ألا نأخذ نمرة السيارة ؟..

وقال عبد الغنى :

ـــ وماذا نصنع بها ؟.. المسألة جاءت من عند ربنا .. الولد مات .. لا شك فى ذلك ..

ـــ كيف عرفت ؟

ـــ الذراعان الساقطان والرأس المائل .. الولد مات ، وهذا الذى حمله فى السيارة سيحاول أن يدفنه فى أول تربة .. إنها فرصة عمر أن أحدا لم يعرفه ولا حاول أحد من الواقفين أن يكتب رقم السيارة .. سبحان الله العبد فى التفكير والرب فى التدبير ، جاءت من فوق ..

ـــ ما كل هذه الثقة ؟

ـــ أحسها من داخلى .. أنا متأكد .

وجاءت الزوجتان تبحثان عن زوجيهما وأخاهما، فطالعهما عبد الغنى بالنبأ فى محاولة هزيلة للتفجع ..

ـــ مات ..

ـــ ماذا ؟..

ـــ كيف ؟

وفى خبث إجرامى يحمل الزوجتين المسئولية .

ـــ ألم يكن معكما .. لماذا تركتماه ؟

وقالت رندة :

ـــ وهل تصورنا أن يتركنا ؟ كنا نتحدث وحين التفت إليه لأعرض عليه أن يلعب لعبة الجبل كان فص ملح وذاب ...

ـــ وماذا أخرجه إلى الشارع ؟

وقال عبد الغنى فى صوت عجز عن أن يجعله ملائما للمناسبة :

ـــ قدره ..

وقال عبد الودود :

ـــ وقدرنا .

وفكر عبد الغنى قليلا ثم قال ..

ـــ نعم وقدرنا ..

وغمر الذهول وجه الأختين ، وقفز إلى ذهن أربعتهم فى لحظة واحدة ما رددته رنده :

ـــ ماذا نحن قائلون لعمى صابر ؟

وقالت ناهد :

ـــ أنا ساقاى لا تحملاننى .. تعالوا نجلس ونفكر .

وقصد أربعتهم إلى المقهى .. وسكت عبد الغنى منتظرا رأيهم .. وقال عبد الودود :

ـــ غير معقول أن نذهب إليه ونقول له صديق مات .

وقالت ناهد:

ـــ وماذا يمكن أن نقول ؟

قالت رندة :

ـــ على كل حال لا بد أن نقوم الآن إلى قسم الشرطة ونبلغ .

وقال عبد الغنى :

ـــ إذا لم نفعل نحن هذا سنكون مقصرين أمام أبينا .. وسيذهب هو إلى قسم الشرطة .

وقام عبد الغنى وهو يقول :

ـــ هيا نذهب إلى الشرطة بدلا من تضييع الوقت .

وفى قسم الشرطة تولى عبد الغنى إملاء البلاغ .. وكان البلاغ حاسما فى تضليل كل من يحاول البحث عن أثر لصديق ، ولم يذكر شيئا عن وثوقه

من موته إنما ذكر ما رأى ولم يذكر ما يظنه أو ما يرجوه ..

وخرج أربعتهم إلى مواجهة الأب والأم الجازعين فى البيت ، وقد حاصرتهم الحيرة لا يدريان ماذا يصنعان يتوجسان من التأخير فى هلع بالغ . وحين بلغ ركب عبد الغنى البيت وجد الأب والأم معا هما من يفتحان الباب ، وكانت وجوه الأربعة تحمل الخبر القاتل فانهد صابر جالسا وصاحت الأم فى لوعة :

— صديق .. صديق ..

ودخل الأربعة وأغلق الباب وقال عبد الغنى :

— ربنا وحده القادر على أن يلهمنا الصبر .

ودون وعى قال صابر :

— ماذا صنعتم با بنى يا عبد الغنى ؟

وقال عبد الغنى فى جزع :

— إنه أخونا .

وأعاد الأب جملته :

— ماذا صنعتم بابنى يا عبد الغنى ؟

وقال عبد الودود :

— كلنا أبناؤك .

وقال صابر :

— ماذا دبرتم ؟

وصاحت ناهد :

— دبرنا ؟ وهل تشك فينا يا عمى ؟

و لم يلتفت إليها صابر وإنما نظر إلى عبد الغنى !

ــ تكلم يا عبد الغنى .. تكلم يا عبد المال .

وقال عبد الغنى :

ــ بهذه الطريقة لا أستطيع الكلام .. أعطنى فرصة .

وأمسكت هند بملابس عبد الغنى فى عنف وشراسة ، وفى استجداء أيضا :

ــ أين صديق يا عبد الغنى .. قل أى شىء إلا أنه مات .. أى شىء إلا أنه مات ..

ــ لا .. إن شاء الله .. لا .

وراحت تهزه وتقول :

ــ إذن قل .. تكلم !

وجلس عبد الغنى وراح يروى القصة ، حتى إذا انتهى منها قال صابر :

ــ لم يمت يا عبد الغنى .. أنا على وعد من الله أنه لن يموت قبلى ..

ونظر عبد الغنى وعبد الودود وناهد ورندة إلى بعضهم البعض وأكمل صابر :

ــ ما هذه النظرات .. أحسبتم أننى جننت ؟.. هذه آمال .. أجن أنا ويموت صديق ! ليس فى العالم مال يساوى أن يقال عنكما إن أباكما مجنون .. وليس فى العالم مال يساوى روح إنسان .. أى انسان . فما بالك إن كان هذا الإنسان أخاك .

وأحس عبد الغنى أنه أصبح صفحة بيضاء أمام عينى أبيه يقرأ دخيلة

نفسه ، وأكمل أبوه :

ـــ إن صديق لم يمت .. لم يمت .. والأيام بيننا يا عبد الغنى ويا عبد الودود . وستريان ..

وارتمت هند صامتة ذاهلة على أريكة .. وصاحت رندة :

ـــ أهذا معقول يا عمى ؟

وصاح صابر :

ـــ اخرجوا الآن واتركوا أباكم الذى حطمتم .. وأمكم التى ربتكم كأبنائها و لم تشفقوا على وحيدها ..

وحاول عبد الودود أن يقول :

ـــ ولكن يا ..

وقبل أن يكمل يصيح أبوه :

ـــ ولا كلمة .. اخرجوا الآن .. والموضوع لم ينته بل لن ينتهى إلا حين يعود صديق .. وسيعود رغم أنفك يا عبد الغنى ورغم أنفك يا عبد الودود .. هيا اخرجوا .. أريد أن أفرغ لهذه المسكينه وأبث إلى قلبها الإيمان الذى فى قلبى ..

* * *

(١١)

وضعت أمامه طعاما وراح يأكل ، وراحت تنظر إليه فى إعجاب شديد وفى عجب أشد أن له سرا لا يريد البوح به . وكان صديق جائعا فراح يأكل وكأنه يرى ما يدور بذهنها ، فهو يخشى أن تحادثه ويخشى أن تستدرجه . وفى ذكاء المرأة الموهوب والمكتسب قالت زهيرة :

ـــ كل وأنت مطمئن .. لن أسألك شيئا .. ولك الحرية المطلقة فى أن تحتفظ بسرك .

وحين حاول أن ينفى احتفاظه بسر قاطعته :

ـــ لا تقل كلمة ، فقط كل . وتأكد أننا سنجعلك سعيدا .

وآثر صديق الصمت وراح يأكل وهو أكثر اطمئنانا .

وجاء وجدى ومعه ملابس لصديق ومن بينها بيجاما للنوم ، وأمسكت بها زهيرة :

ـــ أحسنت يا وجدى ! إنها مناسبة له . هيا يا صديق لتلبسها وتستريح قليلا .

ولبى صديق الأمر تاركا أمر مستقبله لله . وحين هدأ به الفراش قال فى نفسه : ما مصير ذلك الحلم الذى رأيته منذ قريب ورويته لأبى ؟ كنت فى الحلم تائها ومع ذلك كنت أعرف طريقى . أسير فى سراديب لا أتبين

معالمها ولكنني كنت فيها أسير على هدى . وانتهت بى الطرقات المتشابكة من العتبة إلى جبل شاهق . رأيتنى وكأننى أقف على قمته وفى السفح عبد الغنى وعبد الودود وناهد ورندة ومعهم أبى وأمى يشيران إلىّ أن أصفح عن أخوىّ . وأفهم الإشارة وأرى فى سمتها الشمس وكأنها تطلب إلىّ أن أستجيب لما يشير به أبى وأمى .

حين روى لأبيه الحلم وقد فرغ من صلاة الفجر وقرآنه ، التفت إليه وقال :

— أنت مبارك يا صديق . احفظ عليك رؤياك لا يعلمها أخواك . أتراني اليوم أبدأ مسيرتى فى التيه .

* * *

قالت زهيرة :

— أراك قد عزمت أمرك على شىء .

— لا أستطيع أن أبت فى الأمر قبل رأيك .

— ماذا تريد ؟ وإن كان يخيل إلى أنى أعرف ما تريد .

— إنك لا شك عرفته .

— أترى هذا ؟

— وما البأس ؟

— ليس صغيرا .

— لا يهم .

— والناس الذين نعرفهم ماذا نقول لهم ؟

ـــ طفل فقد أهله وتبنيناه .

ـــ وشهادة الميلاد ؟

ـــ إننى فى مكان أستطيع منه أن أستخرج عشرين شهادة ميلاد إذا أردت .

ـــ أجمل طفل رأيته فى حياتى .

ـــ أستخرج جواز سفر له ؟

ـــ افعل .

ـــ غدا يكون جوازه بين يديك .

* * *

وفى الغد كان جواز السفر بين يدى زهيرة ومعها شهادة ميلاد تثبت أن صديق اسمه صديق وجدى البطاش .

وفى نفس الغد كان صابر فى قسم الشرطة يسأل إن كانت الشرطة قد وصلت إلى جديد فى شأن ابنه . ثم هو يترك القسم ويذهب إلى الملاهى ويجلس بها وإنما مجلسه لها كان بين روادها عجبا . إنه يولى ظهره للملاهى ويستقبل الشارع ينظر إلى الطريق والسيارات وكأنما ينظر قادما هو واثق من مجيئه .

سافر وجدى إلى بولندة وكان فى بعثة لمدة سنة ليشهد نظام السجون هناك ، فقد كان وجدى ضابطا بدرجة رائد فى السجن الحربى . وقد استطاع أن يدبر هذه البعثة وشجعه عليها الرؤساء ليحاولوا عن طريق بعثته أن يرفعوا إلى رأس النظام تقريرا يثبت أنهم أكثر شدة من كل السجون

التى تشرف عليها النظم الشيوعية .

وحين صحب وجدى وزهيرة صديق فكرا فى الطائرة :

— ماذا نحن صانعان به هناك ؟

— لقد أفهمت سفيرنا هناك أن معى طفلا وأريد أن يواصل تعليمه .

— وماذا قال لك ؟

— قال لا مشكلة .

— واكتفيت بهذا ؟

— وماذا تريدينني أن أصنع ؟

— تستفهم .. تسأل .. تعرف .

— فى التليفون ، والخطوط مراقبة ؟

— وهل يهمك أنت الخطوط المراقبة ؟

— أنا أكثر من أى إنسان فى مصر .

— فلماذا لا تراقب الله فى بيتك .

وصوت خفيض ملىء بالذلة قال :

— هل ينقصك شىء ؟

وفى جرأة المرأة إذا كان الحق فى جانبها :

— ألا تعرف ؟

وفى ذلة أخرى تحاول أن تبتعد عن بؤرة الدوامة :

— أنت تعيشين أحسن عيشة .. فيلا وسيارة وطلباتك أوامر تتسابق إلى تنفيذها إمكانات دولة بأكملها .

— إذن فلا ينقصنى شىء .

ـــ مؤكد .

ـــ وجدى .

ـــ نعم .

ـــ من أين تأتى بهذه الجرأة ؟

ـــ ألست ضابط جيش ؟

ـــ فى السجن تنفذ عذاباتك على العزل الذين لا يملكون حربك .

ـــ عملى فى السجن .. على كل ضابط أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه . مخالفة الأوامر جريمة قد تصل عقوبتها إلى الإعدام .

ـــ أنتم تنفذون الإعدام بلا جريمة على الإطلاق .

ـــ اسكتى الله يخرب بيتك .

ـــ أكثر من هذا الخراب .

ـــ اسكتى .

ـــ أتظن أن أحدا يسمعنا الآن ونحن فى الطائرة .

ـــ من يدرى ؟

ـــ كيف تقول إنك تعلمت الجرأة من الجيش .

ـــ الجرأة على العدو لا على النظام الذى أعمل واحدا من أجهزته .

ـــ وهل أنا عدو ؟

ـــ ألعن .

ـــ اسمح لى أن أعود إلى سؤالى الأول وأعدله بعض الشىء .. من أين تأتى بهذه الصفاقة ؟

ـــ صفاقة !

ـــ أليست صفاقة منك أن تقول إننى لا ينقصنى شىء ؟

ـــ طبعا لا ينقصك شىء .

ـــ أنت الذى تقول هذا ؟

ـــ وكل الناس تقوله معى .

ـــ أسمح لكل الناس أن يقولوه إلا أنت .

ـــ لماذا ؟

ـــ يا لك من فاجر .

ـــ فاجر ؟؟

ـــ أقل وصف طاف بذهنى .

ـــ ألا تقومى إلى صديق الذى يجلس وحيدا .. ألا يكفيه شعوره بالبعد عن أهله الذين يرفض أن يقول عنهم شيئا ؟

ودون أن تعير محاولته لتغيير الحديث أدنى التفات استمرت فى هجومها الشرس :

ـــ أنا يا وجدى لا ينقصنى شىء !

ـــ مؤكد . قومى إلى صديق .

ـــ ألا تعرف ماذا ينقصنى ؟

ـــ يا ستى فهمت .

ـــ فهمت ؟ يا لك من ذكى !.. أيحتاج هذا إلى فهم ؟

ـــ إذن فلماذا هذا الهجوم ؟

ـــ كان ينبغى أن تطلقنى من أول يوم عرفت فيه أنك عاجز تماما كرجل .

— وأفضح نفسى ؟

— ليس هذا ما يمنعك . أنت تعرف أننى لن أقول شيئا .

— وكيف أعرف ؟

— ومن أجل هذا ترفض أن تطلقنى وتجعلنى تحت المراقبة الدائمة ... أهذه رجولة ؟ آسفة .. أنت أصلا لست رجلا . ولكن لابد أنك إنسان ولكن كيف ؟ من أين لك الإنسانية ووظيفتك التى تعيش عليها هى قتل الإنسانية فى الإنسان . أنت مخلوق شاذ ، لا من البشر أنت ولا أنت من الحيوان لأن الحيوان يأكل فريسته ولا يعذبها . أنت ..

ويقاطعها وجدى فى محاولة للحزم :

— زهيرة كفى .

— ثورة تحرق نفسى أطلقت لها العنان فى أول لحظة شعرت فيها أننى فى حمى الله بعيدا عن مصر، وأننى أستطيع أن أقول ولا تهددنى بما تملكه فى مصر من جبروت وظلم وطغيان . أقوم الآن إلى صديق .

وقامت إلى صديق وبدأت معه الحديث محاولة أن تزيل عنه الغربة المادية والنفسية التى يعانيها ، ولم تدهش حين وجدته سعيدا بأنه فى الطائرة بعيداً عن أهله ..

— ترى ما الذى يلاحقك أنت أيضا أيها الطفل رائع الجمال فى بيت أمك وأبيك ؟ كان الله لك يا بنى وكان الله لى .

* * *

(١٢)

لم يكن عبد الغنى ولا عبد الودود يتصوران أن يحيط كل هذا الدمار بأبيهما .. حتى لقد كانت هند وهى الأم التى ليس لها إلا صديق أكثر صلابة من زوجها وتحاول أن تصبره ..

ـــ يا صابر .. لقد فقدت وحيدى فأستخلفك بالله ألا تجعلنى أفقدك أنت أيضا ..

وفى إصرار وألم :

ـــ لم تفقدى صديق .. ولن تفقدينى حتى نجده ..

ـــ أتتصور أنه حى ولم يأت طوال هذه المدة ؟.

ـــ وأنا أيضا لا أتصور أن يصدم شخص طفلا بسيارة ويختطفه .

ـــ الصدمة قاتلة .. والمجرم أراد أن يخفى معالم جريمته ..

ـــ يا ستى لا يمكن .. أين تظنين أننى كنت أذهب فى الصباح طوال الأيام الماضية ؟..

ـــ لا أدرى ..

ـــ كنت أظل الساعات الطوال فى شارع الملاهى .. حركة السيارات بطيئة للغاية لزحمة المرور .. لا يمكن أن تكون الصدمة قاتلة فى هذا المكان مطلقا ..

ـــ ربما كان الشارع خاليا فى هذا اليوم ..

ــ يوم جمعة والملاهى مزدحمة والمرور لا يسمح أن تسير سيارة بسرعة تؤدى إلى قتل من تصدمه ..

ــ لا يمكن أن تثق كل هذه الثقة من أجل استنتاجات مثل هذه يا صابر .. أرجوك .. تحتسب لله .. ولا توجد فى نفسى أملا أعلم أنه لن يتحقق ..

ــ بل سيتحقق وسترين إن شاء الله .

ــ من أين لك كل هذه الثقة ؟

ــ ومن يملك أن يرسل الثقة فى النفوس إلا الواحد الحق . الملك .. القدوس ..

ــ مادمت مطمئنا ففيم حزنك ؟

ــ إنه بعيد عنى ولا أعرف عنه شيئا .. ما مصيره ؟.. إلى أين تقوده متاهات الحياة ؟.. هو حى .. هو حى لم يمت أنا واثق .. لأن الله يمدنى بهذه الثقة .. ولكن كيف يحيا حياته .. ما مصيره ؟.. إن الله لا يبتلى إلا عباده المؤمنين .. هو مولانا وعليه توكلت.. وإليه المصير ..

ــ وهل معنى هذا أن تترك زراعتك ولا ترعى شأنك ؟

ــ اسمعى .. أولادى أهملوا شأن أخيهم من أجل الزراعة .. وكلاهما خريج زراعة . سأترك لهما كل شىء ولكننى سأحتفظ بالملكية حتى تقسم على ثلاثتهم وليس عليهما وحدهما .. فليفعلا ما يريدان ولكننى سأظل أنا المالك ..

وكذا انفرد عبد الغنى وعبد الودود بشئون الأرض يديرانها كيفما أرادا ، ولكن صابر كان دائما قابضا على ما تغله يعطى ولديه ما يريد أن

يعطى وينفق ما يشاء ويدخر ما يشاء .. وقد كان دائما حريصا على أن يجنب مبلغا من المال يعتبره حق صديق الذى ينبغى أن يبقى له لا يعدو عليه أحد .

* * *

كان المال يدخره صابر لصديق .. وكان صديق قد التحق فى بولندة بمدرسة تعلم اللغة الإنجليزية فبهر المدرسين هناك بسرعة تعلمه بصورة لم يشهدها واحد منهم قط .. وقد جعلهم هذا يتعهدونه بالرعاية ويمدونه بالكتب وصديق يسير فى تعليمه مقبلا عليه غير ملتفت إلى ما يلهو به أبناء سنه من ملاعب الأطفال . حتى لقد كانت زهيرة ووجدى يحثانه على اللعب فيتأبى عليه . وكما بهر صديق مدرسيه .. بهر وجدى وزوجته بمحافظته على الصلاة فى مواقيتها .. وحين أدركهم شهر رمضان هناك أصر على الصيام حتى لقد خجل منه وجدى وزهيرة وصاما هما أيضا .. وأمرهما إلى الله ..

وتمر السنة وتعود الأسرة التى أصبحت ثلاثة نفر إلى القاهرة .. وفى الطائرة يسأل وجدى صديق :

— ما رأيك يا صديق أتذهب إلى مدرسة عربية أم تكمل الدراسة بالإنجليزية ؟

— أفضل أن أتمها بالإنجليزية ..

— لك ما تريد .

وتقول زهيرة :

— إنها فرصة أن يتعلم الإنجليزية وهو أصلا قوى فى اللغة العربية ..

ــ معقول ..

ــ وخاصة أنه دائما يقرأ فى القرآن فلا خوف عليه فى اللغة العربية أبدا ..

ــ لقد حفظت ربع القرآن والحمد لله ، وفى فترة قليلة سأحفظه كله ..

وفى اليوم التالى لوصولهم إلى القاهرة يقيد وجدى اسم صديق فى مدرسة أساس التعليم فيها باللغة الإنجليزية ..

.. وتمر السنون ..

* * *

(١٣)

ينفرد عيد الغنى وعبد الودود بالأرض تماما .. ويصبح صابر وهو لا عمل له إلا الصلاة والعمرة والحج .. والعجيب أن ولديه لم يستطيعا أن يغلباه على أمره .. فإن أحدا منهما لا يملك التوقيع .. ولابد من توقيع صابر على كل المعاملات التى تتصل بالأرض .. وحين حاول عبد الغنى أن يقول :

ـــ يا بابا أنت تسافر كثيرا والمعاملات المالية تحتاج إلى ..

قاطعه صابر فى جزم ودون أى تفكير :

ـــ إذا كنت تريد أن أكتب لك توكيلا لأصبح أنا وكأنى غير موجود فهيهات . هذه الأرض ملكى .. وستقسم على أبنائى الثلاثة عند موتى وتأخذ زوجتى نصيب الثمن حقها الشرعى ..

ـــ ولكن يا أبى ..

ـــ أى محاولة أخرى سأعود أنا إلى إدارة الأرض إدارة كاملة ..

ـــ ما أحب إلينا .

ـــ لا تستطيع أن تخدع أباك. إن الذى لا يقدر ذكاء الآخرين ويحاول أن يتذاكى عليهم غبى لا يفهم ..

ـــ وهل حاولت ؟

ـــ صدمتى فى ابنى لم تفقدنى عقلى ، وإنما زهدتنى فى الأرض التى

جعلت الإخوة يهملون الأخ . أما عقلى فقد ازداد حدة وازددت إدراكا للحياة . وإقبالى على العبادة حب فى الدنيا وفى الآخرة .. وتعشقى للذات الربانية جعلنى أكثر فهما للحياة وإدراكا لها .. نحن الربانيين أعقل من يمشى على الأرض .. والذى يعاملنا على غير هذا الأساس غبى لا يفهم ..

وهكذا استقر الأمر على أن يدير عبد الغنى وعبد الودود الأرض ما طابت لهما الإدارة ، ولكن إصدار المال واستقباله يكون لصابر وحده ..

وقد زرع عبد الغنى وأخوه الذى كان أشبه بتابع له الأرض جميعها موالح . وأصبح عائد الأرض عشرة أضعاف عائدها حين كان صابر يديرها .. وقد استطاع الشابان المتخرجان فى الزراعة أن ينتجا من أرض الموالح أحسن ما تستطيع أن تعطيه كمية ونوعا ، وأصبح لإنتاجهما شهرة بعيدة ..

* * *

أصبح صابر ذات يوم فوجد نظره يتغشاه ما يعوق الرؤية بوضوح .
فذهب من يومه إلى الطبيب ..

فقال له الطبيب :

ــ لقد تعرضت لصدمات عصبية ..

ولم يجب صابر .

ــ طبعا تحتاج إلى عملية ..

ــ هل نجاح العملية مؤكد ؟

ــ إن شاء الله .

وحين عاد إلى البيت سألته هند فقال :

ــ يريد أن يجرى لى عملية .. ولن أجريها ..

ــ ماذا تقول ؟

ــ لن أجرى عملية فأنا لا أحتاج لنظرى إلى يوم يعود صديق .. حين يعود سأجرى العملية .

ــ أهذا إيمان ؟.

ــ أنا لا أقتـل نفسى ، إنما أنا أستغنى عن جارحة شاء الله أن يصيبنى فيها والله المستعان ..

ــ وكيف ستقرأ القرآن ؟.

ــ تقرأين أنت لى فأكسب فيك ثوابا ، وتجدين شيئا تصنعينه بدلا من الحزن الذى يفرى كيانك وترفضين أن تبينى عنه ، حتى لا يقال عليك ما يقال على ..

ــ ما يقال عنك لا يعيبك ..

ــ إننى لا أفتأ أذكر صديق حتى لقد أوشكت أن أجن ..

ــ ابنك وحزنت عليه لا ضير عليك ..

ــ إذن فابكى يا هند كما أبكى حتى تخففى لوعتك ..

ــ ولماذا أبكى وأنت تقول إنه موجود ، وأنت لم تكذب فى حياتك قط ..

ــ إلهذا الحد تثقين بى ؟..

ــ وأى غرابة فى ذلك .. أنت جدير بكل ثقة ..

ــ أكرمك الله قدر ما تعذبت يا هند .

ــ أكرمنى أنت حتى يكرمنى الله ..

— وهل قصرت ؟..

— أجر العملية .

— أنا لا أريد أن أراك حزينة وأرى ولدىّ فرحين بما حققا من نجاح .. ربما خفت ضياع بصرى من الآلام التى أطالعها بعينى فى حياتى ..

— أليس الإبصار إكرامًا من الله ؟

— ولسبب أراده حجبه عنى فترة .. الحمد لله على ما أعطى والحمد له على ما أخذ .. ولن أحاول أن أسترد بصرى إلا إذا كان هناك ما أحب أن أراه .

* * *

(١٤)

نال صديق شهادة الثانوية العامة وقدم أوراقه فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فقبلت ، فقد كان من أوائل الحاصلين على الشهادة .

وحدث أمر عجيب .

كانت زهيرة فى حجرتها تتزين فهى حريصة دائما على أن تتزين . وحين أكملت زينتها نظرت إلى المرآة بحسرة ملتاعة وتصاعدت من كيان المرأة فيها حميا نيران متقدة بالحريق ، وشعرت أنها إذا ظلت رائية إلى المرآة ستحطمها ، فسارعت تخرج من الغرفة ومرت بحجرة صديق واقفا أمام المرآة يكمل ملابس نومه فراعها ما رأت .

من هذا الفتى الشامخ الجمال المفتول العضل السمهرى القامة ذو الكبرياء الأشم ؟ ويلى إنه ليس ابنى ، إنه فتى لا أعرف من أبوه ولا أعرف أمه ، وإنما بذلت له من نفسى السنوات الطوال ليدرج من الطفولة إلى هذا الشباب النادر .

وقفت زهيرة على باب الغرفة يغمرها الذهول ، تمزقها الجرأة فيها ، تدفعها الأنوثة ويردها الحذر .

أهذا هو الفتى الذى قدم إلى بيتى خائفا ملتاعا يتسربل رعبه ، ويرد ببيتى غوافل حياة طالعته بالأهوال وبالرعب وبالتهديد وبالويلات ؟ أهذا هو الطفل الذى دخلت معه الحمام يوم مجيئه والذى احتضنته من أهوال

الحياة وأقمت عليه الحصون مما كان يهدده ؟ أهذا هو مشروع الإنسان الذى جاء إلىّ يتكفى فى مخاوفه ومحاذيره فأمنته ورعيته حتى أصبح هذا الرجل كله ؟

ألم يئن الأوان أن يصبح لى رجلا بعد أن كان فى بيتى طفلا ما كنت أنا أمه .. وما كان صاحب حق عندى ؟ فما البأس به أو بى أن يكون فتاى ؟

ذهبت إلى غرفتها وخلعت ملابسها وارتدت قميصا داخليا ووقفت بالباب ونادت :

— صديق .

وجاءها صوته :

— أفندم .

— هل أنت خارج ؟

— لا أبدا .

— تعال .

— حالا .

وفى لحظة كان عندها فقد كانت إشارتها عنده أمرا وقبل أن يجىء كانت قد سارعت هى إلى السرير واستلقت عليه معتمدة رأسها على كفها.وما إن دخل حتى قامت إلى الباب الذى دخل منه فأغلقته وسارعت إلى باب الحجرة الآخر الذى يؤدى إلى حجرة زوجها والذى لا يستعمل مطلقا فأغلقته هو الآخر والتفتت إلى صديق :

— قبلنى .

وأصابه ما يشبه الجنون . ما هذا الذى يراه ؟. إنه كان يتصور أى شىء

إلا هذا . إنها امرأة فى قمة الجمال ولكنها فى مكان أمه . وما قيمة هذا إنه ليس زواجا . إنهـا جميلة .. إنها المرأة كما ينبغى أن تكون المرأة .

قبلها فى خدها .

وصرخت :

ــ أهذه هى القبلة .. القبلة هكذا .

والتقفت فمه والتقف فمها وثارت فى دمائه نار الشباب الملتهب وهم بها ولكنه فجأة ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

صاح : أستغفر الله . كيف أخونه ؟ إنه من فتح لى بيته وأمن حياتى وربانى ... لقد شردنى الظلم فكيف أظلم أنا ؟

وجرى إلى الباب فلحقت به وأمسكت بردائه فمزق فى يدها .

ودخل الزوج . وأدرك كل شىء .

وحاول صديق أن يقول شيئا ولكـن وجـدى أشار إليـه فسكت وانسحب إلى غرفته وراح يجمع ملابسه . إلى أين بى المسير ؟. إلى أين بى يتجه المصير ؟..

وقفت زهيرة لوجدى متصدية . إنها امرأة وإنها لا تنال حق الزوجية . فما البأس بها أن تلتمس حقها عند غيره ، وبدلا من أن يثور وجدى أطرق فى خزى وكأنها هى التى أطبقت عليه متلبسا بالخيانة . فإن الحق قديم ، ومهما يحاول الطاغية أن يعتدى على حق الناس فى العلن إلا أنه فى دخيلة نفسه يعرف أنه ظالم غاشم يستلب الناس ما لهم من حقوق .

ووجدى يعلم كل العلم أنه يبقى زوجته معه ظلما وبهتانا وزورا

واغتصابا .

استخزى وجدى وانسحب مثل قط جريح إلى حجرته واستلقى على الكرسى .

— ماذا أنا صانع الآن؟ إن ترك البيت فضحنى ، وإن طلقتها فضحتنى ، وما أنا بمطلقها أبدا . وكيف أسمح لها أن تكون حرة وتتزوج غيرى ويعرف الجميع أن وجدى الأسد الكاسر الذى دوخ الناس وأمر بالاعتداء على أعراضهم وكراماتهم وجسومهم ، عاجز أن يكون مثل أضعف الرجال وأهونهم شأنا .

فز عن كرسيه وسارع إلى غرفة صديق فوجده قد أعد حقيبته .

— نعم هذا ما توقعته . لا ، لا تفعل هذا ..

— لا أستطيع أن أبقى فى البيت .. لا يمكن .

— سنرى . وإنما خروجك مستحيل .. إلى أين تذهب ، وماذا سيقول الناس ؟

— أنت تعرف أننى لن أنطق حرفا .

— فإذا خرجت فإنك غير محتاج أن تقول شيئا . سيقول الناس بالنيابة عنك كل شىء .

وجم صديق لا يدرى ماذا يقول أو يفعل . الكلام الذى يقوله كافله واضح وصادق . وهو حريص على أن يظل هذا البيت الذى رعى شأنه من الطفولة الباكرة إلى الشباب نظيفا أمام الناس بعيدا عن كل شبهة ، نقيا فى سمعته شريفا فى مظهره مهما يكن داخله عفنا شائها . وهو أشد حرصا ألا يكون هو سببا مباشرا أو غير مباشر فيما يجعل هذا البيت على ألسنة

الناس تشنيعا وتجريحا وقذفا . ويقطع عليه وجدى تفكيره :

— أتحب أن تسافر إلى الخارج ؟

— ماذا أصنع فى الخارج ؟

— تقضى الإجازة .

— وبعد الإجازة ؟

— بعد الإجازة تعود .

— يا عمى وجدى أنا لن أعيش فى هذا البيت أبدا بعد اليوم . ولو كان متاحا لى أن أسافر إلى الخارج لأتعلم لفعلت ، ولكن هذا مستحيل .

وفى شبه حيرة وضياع يقول وجدى :

— لماذا مستحيل ؟

— أنت أنفقت على أكثر مما ينبغى ، وليس معقولا أن أكلفك أيضا أن تنفق على فى الخارج . وأنت يا عمى وجدى فى منصب سياسى ، والمنصب السياسى قد يتغير بين يوم وليلة . فما مصيرى إذا نقلت أنت من مكانك ؟ سيصبح مستحيلا أن تواصل تعليمى لأنك لن تستطيع أن ترسل لى مالا بالطريق المشروع .. وستكون تحت العيون . ولن تستطيع أيضا أن تستعمل الطرق غير المشروعة .. هذا من ناحيتك . ومن ناحيتى أنا لا أتصور أن أترك مصر أبدا . إن قدرى أن أرتبط بمصر وأنا أعلم هذا كل العلم .

— فماذا ترى إذن ... أراك تعد حقائبك فإلى أين كنت تنوى الذهاب .

— إلى فندق .

ــ قد يكون هذا حلا مؤقتا .

ــ حل مؤقت لا شك .

ــ أستأجر لك شقة .

ــ أنا لن أكلفك بعد اليوم مليما ولو أدى ذلك إلى أن أستجدى فى الطرقات .

ــ هل هذا معقول ؟ وكيف ستعيش إذن ؟ ليس لك أحد على الإطلاق .

وقال صديق فى نفسه :

ــ علم الله أن لى أبا لا يحب أحدا فى حياته قدر حبه لى ، ولى أم أنا كل أملها فى الدنيا . ولى أيضا مع الأسف أخوان يريدان قتلى . ولكنى لن أعود قبل أن يعرف الأخوان أننى فى غنى عن مالهما .

ولو استطاع وجدى أن يسمع ذلك الحديث الذى انبثق فى نفس صديق لكان له شأن آخر ، ولكن من أين له أن يسمع ؟ وعلا صوت صديق وهو يقول :

ــ لى الله .

ــ ونعم بالله .

ــ ولن يتركنى .

ــ نعم يا بنى ، ولكن الله يهيئ الأسباب فماذا أنت صانع الآن ؟

وصمت صديق وراح وجدى ينظر إليه منتظرا ما يقول . وفجأة رأى وجدى على وجه صديق نورا كأنما سكبته عليه السماء ، ثم رأى إشراقة أمل . وقال صديق دون ريث انتظار :

ـــ السجن .

ـــ ماذا ؟

ـــ ما سمعت ..

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ أنا الآن سأدخل الكلية ، وكل ما أريده أن أتفرغ للمذاكرة حتى أتخرج بدرجة مشرفة . وأنت مشرف على السجن تستطيع أن تدخل فيه من تشاء . وإن الداخل إلى السجن لا يدرى كم سيبقى .

ـــ أهذا معقول ؟

ـــ أعتزل العالم .

ـــ وإذا انتقلت أنا وتركت السجن ؟

ـــ أخرجنى قبل أن تترك مكانك ، ويفرجها المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك .

ـــ وماذا أقول لمن سيسأل عنك ؟

ـــ سافر يكمل تعليمه فى الخارج .

ـــ وكيف ستذهب إلى الكلية ؟

ـــ هات لى الكتب ودع الباقى على الله وعلى .

سكت وجدى وراح يفكر فى الأمر : الفكرة بالنسبة لى ممتازة . أولا أبعده عنها تماما فلا تحاول محاولتها الأثيمة مرة أخرى ، وأخفى عنها أنه فى السجن . وثانيا سيكون تحت رقابتى دون أن يدرى أحد .. ومن ناحيته سيذاكر ولن يشغله شىء عن المذاكرة . وأنا أستطيع أن أجعل السجن لينا بالنسبة إليه . وستكون صلته بى مباشرة وأستطيع أن ألبى

جميع مطالبه فيصبح سجينا غير سجين . الفكرة ممتازة .

وأعاده صديق من أفكاره المنفردة :

— ماذا قلت ؟

— أكمل إعداد ملابسك .

وراح صديق يكمل إعداد ملابسه فى حزم وإصرار وقد أصبح وجهه كله عزما وإقداما .

* * *

وفى حجرة خاصة نزل صديق بالسجن ، وصدرت الأوامر أنه يستطيع أن يلتقى بمن يشاء من المساجين دون حرج عليه حتى لا يشعر بالوحدة .

وكان إدخال شخص إلى دار سينما . فالسينما على الأقل ستكلفه ثمن التذكرة ، أما السجن فلا يكلفه إلا إدعاء بأنه خطر على الأمن ، فقال شفاها ثم يصبح السجن هو المصير .

* * *

(١٥)

كثر الحديث حول زهيرة ، وعرف الكثيرات أن الفتى الذى تولت تربيته منذ الطفولة خرج من البيت إلى حيث لا يدرى أحد على الإطلاق . وتملكها الغيظ .. فالتهمة قاتلة .. ولا أحد يعرف دافعها عليه ، فإن سرها مع زوجها ظل حبيس صدرها وفراشها لا يعلمه أحد إلا الله .

ومع الأيام كانت زهيرة تشعر بسعة التهمة .. واتساع اللغط بها بين صويحباتها جميعا .. ولم تكن واحدة منهن لتجرؤ على مواجهتها بها . وهكذا واجهت موقفا عجبا .. تهمة ولا تهمة ، وحديث ولا إعلان ، ومناجاة بين النساء لا يرتفع إلى المواجهة ولا ينقطع .. ولم تكن زهيرة فتاة صغيرة بل كانت فى السن التى ينبغى فيه للنساء أن يكن بعيدات عن الشبهة كريمات السمعة .

ولو أن هذا الذى يطالعها اليوم كان أمرا طبيعيا فى حياتها ربما احتملته وضربت بالسمعة والشرف عرض الأفق ، ولكنها عاشت عمرها كله نقية السيرة لا يتناولها لسان إلا بالطهر والعفاف حتى وإن كان لسانا عدوا حادا جارحا .. ربما اتهمها بعضهن بالكبر أو ربما ذكرها لسان بالحدة والعنف .. ولكن لسانا ما لم يتعرض لعرضها قط .

وهكذا واجهت زهيرة فترة مريرة من حياتها ، وزادها مرارة أنها لا تدرى كيف تخرس هذه الألسنة ..

إلا أن فكرة عجيبة طرأت لها لا تدرى مأتاها ، وراحت تنفذها فى إصرار ، وعاونها على ذلك أن زوجها كان فى شبه قطيعة معها لا يسألها عن خروج من البيت أو دخول . فقد كان صديق فى يده مطمئنا إلى أنه بعيد عنها كل البعد . وهو يدرى أنها لم تحاول أن تخطئ إلا مع صديق ، فهو منذ تزوج فرض عليها العيون الرواصد وأطلق خلفها أدواته الجهنمية التى لا يخفى سر عليها وأصبح واثقا منها كل الثقة .. أما صديق فجماله يفتن أعظم النساء عفة وأكثرهن نقاء وطهارة . ثم إنه معها فى البيت .. وإذا قبل فالسر دفين ولن يتصور أحد أن علاقة تقوم بين فتى فى مكان الابن وبين امرأة هى منه فى مكان الأم .

إن تكن حاولت معه فهى بالقطع واليقين لن تحاول مع غيره .. فلتخرج ما طاب لها الخروج فهى فى موقف صعب شديد ... وهى إن تكن تكسر عين زوجها بعجزه إلا أنها تشعر أن ما فعلته غير جدير بها ولا يبرره حال زوجها ، كما لا يبرره ثقتها أن زوجها لن يستطيع أن يطلقها . فهى تدرى أنه يحرص على أن يظل أمره خفيا عن الناس غاية الخفاء . وقد عمل على ذلك بكل السلطات التى فى يده شرعية هذه السلطات مستمدة من قوامة الزواج ، أو غير شرعية مستمدة من السلطان الظالم والبغى والجبروت .

تأكدت زهيرة أن زوجها سيكون غائبا عن البيت فى يوم الأربعاء فاختارت هذا اليوم لتدعو إلى الشاى جميع اللواتى اتهمنها بالعيون اللائمة أو العيون المتسائلة أو العيون المتلصصة .. أو بالابتسامة الخبيثة . وأصرت أن تدعو اللواتى تجرأن وسألنها كيف حال صديق لماذا لا نراه ؟..

وكان هذا السؤال غريبا لأن صديق كان بالنسبة لصويحباتها شبحا يسمعن عنه ولا يرينه منذ قدم إلى البيت ..

دعت أولئكن جميعا وأعدت لهن حفلة شاى باذخة أكثرت فيها من الفاكهة واختارت التفاح بالذات ، وذهبت خصيصا إلى من يسن السكاكين فيجعلها بالغة الحدة .. وذهبت أيضا إلى أحد المصورين وأعطته صورة صغيرة عندها وطلبت إليه أن يكبرها فيجعلها بالحجم الطبيعى ..

وجاءت المدعوات وقدمت إليهن التفاح وانتظرت حتى بدأن يقشرن التفاح وأزاحت الستار عن الصورة المكبرة لصديق ، فبدت الصورة وكأن صاحبها هو الماثل لا الصورة . وارتبكت السكاكين فى أيدى النسوة وقطعن أيديهن وتصايحن .. هذا ملاك .. لم نر مثل هذا الجمال .. ليس هذا من البشر ..

ــ لا تلمننى إذن وأنتن قطعتن أيديكن ..

وسترت الصورة ، وفهم المدعوات أنه لا معنى لبقائهن بعد ذلك .. فقد أسدل الستار على نهاية التمثيلية التى ألفتها زهيرة ..

وفى المساء اقتحمت زهيرة على وجدى غرفته ، وأصابه ارتباك شديد وراح ينتظر ماذا هى قائلة له .. ولم تقل كثيرا :

ــ هذا جواز سفرى ..

ــ ماله ؟

ــ أريد تأشيرة للأراضى الحجازية .

ــ ما زال الوقت بعيدا عن الحج .

ـــ سأقيم هناك حتى موعد الحج وأؤدى الفرض .

ـــ من الآن إلى موعد الحج .

وفى حسم قاطع ..

ـــ نعم .

وفى خضوع حازم :

ـــ أمرك ..

* * *

(١٦)

نال صديق شهادة البكالوريوس .. ويوم أن أبلغه وجدى بالنتيجة وبشره أنه نالها بدرجة الامتياز قال له شيئا عجيبا ..

ـــ يا صديق أنا أعرف أنك على قدر كبير من العلم والحكمة .. وأنك موصول الأسباب بالله سبحانه وتعالى ..

ـــ الحمد لله ..

ـــ رأيت رؤيا .

ـــ قلها .. فكل رفاقى فى السجن يلجأون إلىّ لأفسر لهم ما يرون من رؤى .. فهم كما تعلم لا يرون من الدنيا شيئا إلا عندما ينامون ..

قال وجدى :

ـــ رأيت كأننى فى صحراء عريضة وحدى أشعر بالوحشة الشديدة والانفراد ، ثم فجأة رأيت كأنما تنبت الصحراء حولى نوعا عجيبا من النبات أحاط بى كالسوار ، فجريت إلى أعوادالنبات أحاول أن أزيحها فإذا هى أعواد من حديد صلب لا يلين ولا ينثنى .. وقد التصق كل عمود منه بالآخر كأنه حائط لا فراغ فيه .. وفجأة اخترق هذا الحائط الحديدى جماعة من النمور كانت تخترق الحديد وتدخل منه ، ثم يعود الحديد إلى الالتئام وكأنه ما لان للنمور ولا انفرج عنها .. والتفت النمور حولى وملأنى الرعب . ورحت أدور بعينى فى عيون النمور فأجد غضبا عارما

وأجد نيرانا لاهبة وصرخت .. وصحوت .. ما هذه الرؤيا ..؟

ـــ اسمع أنا عرفت الرؤيا ، ولكن لن أعبر لك عنها إلا عندما تأتى إلىّ فى المرة القادمة .. وتخبرنى أننى عينت مستشارا ماليا لوزارة الزراعة .

ـــ حددت المنصب .. أيعقل أن تعين فى هذا المكان وأنت متخرج فى هذا العام ..

ـــ لا عليك .. اجعلنى أقابل وزير الزراعة ولن أطلب منه تعيينى إلا بالدرجة التى يؤهلنى لها تخرجى .. ولكننى أعرف فى نفسى أننى خبير فى هذا المكان ، وأننى سأفيد مصر فائدة عظمى فيه ..

ـــ وما شأن هذا بالرؤيا ..؟

ـــ إن له شأنا أى شأن ..

ـــ ما ترى ..

ـــ وشىء آخر ..

ـــ ماذا ؟

ـــ لقد قضيت هنا أربع سنوات وأنت أخبرتنى أن السيدة حرمك أصبحت لا تترك فرضا من فروض الله إلا أدته وأنها دائبة على قراءة القرآن ، وأنها أصبحت إنسانا آخر ..

ـــ هذا حق ..

ـــ فلا معنى لبقائى هنا إذن ؟

ـــ أنا تحت أمرك ..

ـــ أخرج الآن معك ..

ـــ لك هذا .. بيتى تحت أمرك ..

ـــ بل تضعنى فى حجرة مفروشة ..

ـــ هيا بنا ..

* * *

لقى وزير الزراعة وانبهر به الوزير وعينه مستشارا خاصا له فى مكتبه .. وجاء إليه وجدى يهنئه ..

ـــ ما الرؤيا ؟

ـــ لقد انتهى عهدكم .. وعليك أن تعد نفسك لمواجهة الذين عذبتهم .. إنهم هم النمور .. والصحراء بعض الذين يساندونك .. والحديد هو الحصار الذى سيحيط بك ..

ـــ أتعنى أننى ..

ـــ أعنى أن لكل عهد نهاية ولكل أجل كتاب وليس ربك بظلام للعبيد ..

ـــ شماتة ؟

ـــ معاذ الله ما كنت لأشمت فيك .. وقد أكرمت مثواى ولكنه الحق الذى عاهدت الله ألا أقول غيره ..

ـــ الأمر لله من قبل ومن بعد ..

ـــ سبحانه ..

* * *

منذ عين صديق لم يضع وقتا .. فقد طال به الحنين إلى أبويه .. كان يراقب بيت أبيه عن كثب .. وشهد أباه يخرج فى أحد الأيام معتمدا ذراع أمه .. ووضح له تماما أن أباه لا يرى . واعتصر الحزن قلب صديق ..

رعاك الله يا أبى لست أنا الذى صنعت بك هذا .. وإنما هما ابناك الآخران ..

تمكن صديق من مكانته الجديد فى مكتب الوزير أن يعرف كل شىء عن حالة الزراعة فى أرض أبيه .. وعرف أيضا أن أخويه قد جعلا الزراعة كلها موالح . واستقدم المفتش الزراعى المختص بمنطقة الأرض وعرف أن أباه هو الذى يأخذ الأموال كلها وأنه رفض أن يعطى أى توكيل لأبنائه حتى بعد أن كف بصره . وعرف من المفتش أنهم يبيعون الثمار إلى الوزارة لأنها ثمار مثالية ..

* * *

(١٧)

تسلم عبد الغنى خطابا مسجلا من وزارة الزراعة أن الوزارة لن تشترى منهم ثمار هذا العام .. وأنهم يستطيعون مقابلة الأستاذ صديق وجدى بمكتب الوزير للمناقشة معه فى هذا الأمر على أن يكون ذلك بعد أسبوعين من تاريخه بديوان الوزارة ..

ونزل الخطاب على عبد الغنى نزول الصاعقة ، وسارع إلى أبيه يروى له أمر الخطاب وهو يتميز من الغيظ وقال صابر :

ــ هل ما زلت تحب المال هذا الحب يا عبد الغنى ؟.. ماذا أنت صانع به ..

وزلزلت كلمة الأب كيان عبد الغنى.. وفهم الخفى الواضح فى كلام أبيه.

ــ ألأنى لم أنجب ذرية يا أبت ؟.

ــ لا أنت ولا أخوك .. أتحبان المال لذاته ؟ إن ذلك لشأن عجيب ..

ــ أنهمل أمورنا لأننا بلا أولاد ؟.

ــ وفى السماء رزقكم وما توعدون .. كل ما فى الأمر أن ثمن المحصول سيكون أقل من السنوات الماضية .. أليس كذلك ..؟

ــ وهل هذا قليل ؟

ــ ليس كارثة على كل حال .. اقرأ على الخطاب ..

وقرأ الخطاب ووجد أباه يقول بغير مناسبة :

ــ ما الذى أذكرنى صديق الآن ..

وثارت هند :

ــ حرام عليك يا صابر .. إن كنت لا تريد أن ترعى نفسك فارحمنى دون أن تذكر صديق ، وها أنتذا ترفض أن تعالج عينيك ..

ــ لا أريد أن أرى الحياة بدون صديق ..

ــ أليس هذا أمرا عجيبا ؟ وعلى كل حال ما الذى أذكرك صديق الآن ؟..

وقال عبد الغنى فى يأس وإحباط :

ــ إنه لا يريد أن يجيبنى برأى فى شأن الخطاب ..

وقال صابر :

ــ كيف عرفت ذلك ؟..

ــ هذا واضح .

ــ إنك لا ترى الواضح يا عبد الغنى ..

ــ كيف ذاك ؟

ــ إن الخطاب يطلبك للمناقشة .. إذن فعدم الشراء ليس أمرا نهائيا .. بل إن هناك شروطا جديدة .. أو هناك على الأقل كلام سيقال ..

ــ أعزك الله يا أبى ، لقد والله فتحت لى باب أمل من حيث لا أدرى ..

* * *

نادى صديق ساعى مكتبه الذى يدعوه بعم خضر وطلب إليه أن يركب سيارة أجرة معه . واستجاب عم خضر دون أن يسأل عن

القصد . وكان مع صديق لفافة صغيرة يمسك بها فى حنان .. وحين بلغت السيارة بيت أبيه أوقفها وقال لعم خضر :

ــ انزل إلى هذا البيت وأعط هذه اللفافة لمن يفتح لك الباب . وحين يسألك عما بها قل : إنها رسالة قديمة وجدت فى أمانات البريد ووجدت عليها العنوان فقلت آتى بها إليكم ، ربما كان بها شىء مهم .

وفعل خضر ما طلبه إليه صديق بحذافيره ، وفتحت له هند الباب وهو ما توقعه صديق .. وفى طيبة واقتناع قبلت هند ما روى لها خضر ودخلت باللفافة إلى حجرة صابر .. وقصت عليه الأمــر وهى تفتح اللفافة . وما إن رأت ما يغلفه الورق حتى رمت به صائحة .. بسم الله الرحمن الرحيم .. ووقع القميص على وجه صابر فإذا هو يقول فى هدوء وطمأنينة وثقة :

ــ إنه قميص صديق .. ما كان الله ليخذلنى أبدا ..

وصاحت هند وهى تلقف القميص .. وقد أوشكت على الجنون ..

ــ أحقا ما أرى ؟..

وراحت تقبل القميص بدموعها وروحها وبكل كيانها ويقول صابر ثانية :

ــ ما كان الله ليخذلنى أبدا ..

وتجلس هند وهى تقول :

ــ أمعنى هذا أنه حى ؟

ويقول هو فى ثقة :

ــ أما التفسيرات والتخمينات فأتركها لك أما أنا ففى شأن آخر ..

ـــ ماذا أنت صانع ؟

ـــ كم الساعة الآن ؟

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ كم الساعة ؟.. أظنها العاشرة ..

ـــ تقريبا ..

ـــ هيا خذى بيدى ..

ـــ إلى أين ؟

ـــ ستعرفين ..

ـــ يا صابر ربما كان الأمر كما رواه الرجل الذى أحضر اللفافة وتكون رسالة قديمة ..

ـــ أنا لن أناقش الأمر .. هيا بنا ..

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى الدكتور على مالك ..

ـــ أحقا ..

ـــ توكلى على الله ..

ـــ رسالة خير والله .. رسالة خير .. لو لم تعد إلينا إلا بعدك لكفى ..

كانت عملية صابر من العمليات الحديثة بأشعة الليزر .. وكان الدكتور على مالك تواقا أن يقوم بها لصابر فقد كان يرى فيه واحدا من رجال الله المخلصين ..

وتمت العملية ..

* * *

(١٨)

ذهب عبد الغنى وعبد الودود إلى مكتب صديق ولقيهما من فوره .

وراح عبد الغنى يتكلم دون أى مقدمات .

ـــ يا سعادة البك إن الثمار التى ننتجها لا مثيل لها فى القطر كله فلماذا ترفضون شراءها ؟ أهذا معقول . إنها أول مزرعة فى مصر ، وجميع إنتاجها يصدر إلى الخارج و ....

واستمر الحديث طويلا وصديق يسمع لا يتكلم حتى إذا نفدت كلمات عبد الغنى وأصبح لا يجد شيئا يقوله التفت صديق إلى عبد الودود وقال له :

ـــ وأنت ... ألا تقول شيئا ؟

ـــ لا يا افندم ... قال أخى كل شيء ..

ـــ ألا زلت على حالك هو يقول وأنت تسمع وتنفذ .

وفى بهر مذهول صاح كلاهما :

ـــ ماذا ؟

وأكمل دون أن يعير ذهولهما أى التفات :

ـــ كنت أتصور يا عبد الودود أنك مع السن ستصبح لك شخصية ، ولكن للأسف أنت كما أنت لم تزدك السنون إلا ضعفا .

ونظر عبد الغنى إلى عبد الودود وقال :

ــ من هذا .... أيمكن .... أيعقل .... أيتصور أحد هذا ؟

وانتفض عبد الغنى واقفا فى حيرة من يجابه الماضى فى مكان لا يتصور أن يرى فيه أثرا منه ... وصاح :

ــ أهو أنت ... أصديق أنت .... أنت صديق .

ويصيح عبد الودود وكأنه صدى صوت :

ــ أهو صديق ... صديق أخونا .. أهو صديق ؟

وفى ثبات حازم يصيح بهما صديق :

ــ اصمتا واسمعا ... اسمعا كلاما ظل كالإعصار فى نفسى منذ وعيت الحياة ... كعزيف الريح كان وآن له أن ينتقل إلى اللذين أثاراه .

ــ ماذا ؟

ــ ماذا تقول ؟

وفى هدوء ثابت أطلق صديق عاصفته التى لازمته سنين العمر الواعى كلها :

ــ لماذا أردتما قتلى ؟

وصاح كلاهما كما لو كانت رصاصة قد أصابت كلاً منهما :

ــ ماذا .

وفى هدوئه لا يزال يقول صديق :

ــ لقد غبت عنكما هذه السنوات وأنتما لا تعرفان أننى سمعت المؤامرة التى كنت تدبرها أنت يا عبد الغنى والتى وافقت عليها أنت يا عبد الودود ، وأنتما جالسان بمقهى الملاهى .

وصاح عبد الغنى :

ـــ سمعت ماذا ؟ سمعت ماذا ؟

وصاح عبد الودود :

ـــ إذن فقد سمعت .

ويكمل صديق فى ثبات :

ـــ وجريت يومذاك مذعورا . ولو كنت قتلت لكنتما قاتلىّ . وانتظرت هذه السنوات أرفض العودة حتى أكون واثقا من نفسى وأنفى عن نفسى خوف الأخ الأصغر يريد أخواه الكبيران أن يقتلاه . وأنتما اليوم كلاكما أضعف منى . وأنا أواجهكما .

وأجهش الأخوان باكيين فقد كان البكاء هو كل ما يمكن أن يقال .

وقال صديق :

ـــ بعض دموع ستحمل إلى نفسيكما الراحة أين هى من عذاب طفل وفتى وشاب يعيش على الصدقة فى بيت لا يجمعه به نسب ولا تصله به قرابة ؟... ما بعض دموع أمام ذل السنوات والشعور بالضياع والإحساس أننى فى أى لحظة قد أطرد من البيت ؟ ما بعض قطرات من ماء العين وأنا الذى وجدت السجن أحب إلى من الحرية ، وعشت فيه لأقطع ما بينى وبين هؤلاء الناس ؟ ابكيا ما شاء لكما البكاء فقد ألقيتمانى السنين الطوال إلى عالم لا أموت فيه ولا أحيا .

وقال عبد الغنى :

ـــ ألا نطمع فى غفران .. إن الحياة التى اختارها الله لتكون سخطه على آدم لابد أن يكون فيها أمثالنا من الخاطئين .. وهى غير جديرة بأن تعاش ، إن لم يكن فيها أمثالك من الصديقين الغافرين .

ـــ وإن غفرت لحقي فكيف أغفر لحق أبي ؟

ـــ لقد عاد إليه نظره .

ـــ لأني أرسلت إليه قميصي،لقد حطمتم رجلا لولا إيمانه لأحاط به الفزع الأكبر من الهول .

ـــ هو سيغفر .

ـــ لأنه أب وأنه لم يعرف ما كنتما تدبران .

ـــ أوَ تقول له ؟

ـــ سنرى .... هلم بنا إليه .

* * *

وارتمى صابر في أحضان صديق وعلا منهما بكاء الفرح ، وأحاطت بالاثنين ذراعا هند وقلبها . وراح صديق يقبل رأس أمه ووجهها وعينيها . إنها أمه الحق .. التي لا يخاف عندها ولا يعرى . وحين هذا اللقاء نظر صابر إلى صديق ثم نظر إلى عبد الغني وعبد الودود وقال لصديق :

ـــ إنك لن ترد لي عندك طلبا ..

ـــ حتى إن كانت عودتي إلى حيث كنت ..

ـــ أنا أعلم أنك ما هربت إلا فزعا من أخويك .

وقف الإخوة الثلاثة وأكمل صابر :

ـــ أتذكر الرؤيا التي رويتها لي قبل أن نفترق ... إنك في الرؤيا قد غفرت فهل أرجو أن تغفر في الحياة ؟. وكفاهما أنهما لم ينجبا ولدا ولا ابنة .. إن السماء تعرف كيف توزع الأرزاق ..

ويقول صديق مطرقا :

ـ اللهم إنى أغفر ، واللهم ارزقهما البنين والبنات ... واللهم لك الحمد فى الأولى والآخرة . اللهم تقبل دعاء ..

ويطرق صابر وهند وعبرات تسبق قولهما معا ..

ـ اللهم آمين ..

« تمت »

الأســـتاذ ثروت اباظـــة

- هارب من الأيام
- جذور فى الهواء
- امواج ولا شاطىء

وستظهر رواياته تباعا

الأستاذ الدكتور نبيل راغب

قاص موهوب يسر « مكتبة مصر » أن تنشر لنتاجه

- ذوابل الحب
- جبروت امرأة
- سور الأزبكية
- سوق الجواري
- الجيل الضائع
- عصر الحريم
- غرام الأفاعي
- المذاهب الأدبية (في النقد – يدرس في الجامعات)
- قلعة الكبش
- شق الثعبان
- درب الشوك
- السكودية

الأستاذ عبد الستار فراج

- انتصار المنصورة

الأستاذ اسماعيل ولى الدين

- النجوم تبكى ايضا
- طائر اسمه الحب
- الأســــتاذ (بالاشتراك مع الأستاذ كمال الملاخ)

الأســـتاذ فــؤاد طلبة

- حصـــان للبنت
- ومعى نصف القمر
- فنون الضمة
- صـــديقى
- يوسف ادريس والتابو
- الزمن يولد من جديد (مسرحية)
- الحلو مر

مسلمات خالدات فى ميدان التضحية والفداء

تاليف يوســف الحمــادى

١ ــ سمية ام عمار
٢ ــ خديجة ام المؤمنين
٣ ــ صفية بنت عبد المطلب
٤ ــ أسماء ذات النطاقين
٥ ــ نسيبة بنت كعب
٦ ــ الخنســاء

رقم الإيداع : ٣٩٥١ / ٨٨
الترقيم الدولى : X - ٠٤٠٨ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ١٧ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه